من مكارم العلم والعلماء (١)

العِلمُ النَّافِعِ

وأَثَرُهُ عَلى سُلُوكِ الفَردِ والمُجتَمَعِ

«فحَقٌّ عَلَى طَلَبَة العِلم: بُلُوغُ غَايَة جُهـدِهِم في الاستِكثَار مِن عِلمِه، والصَّبرُ علَى كُـلِّ عَـارضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وإخلَاصُ النِّيَّة لله في استِدرَاكِ عِلمِـهِ نَصًّا، واستِنبَاطاً، والرَّغبَةُ إلى الله في العَونِ عَلَيهِ؛ فَإنَّه لا يُدرَك خَيرٌ إلَّا بعَونِهِ» [الإمَام الشَّافعيُّ]

كَتَبَهُ

أَبُو العَبَّاس الشِّحريُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

مَن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ [آل عِمرَان] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ [النساء] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ [الأحزاب][1] .

أمَّا بعد :

فإنَّ (**العلم النَّافع**) من خير المطَالب، ومن أعنى ما يحتاجه كلُّ طالب؛ فبه

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- يستفتح بها أخرجها أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٣١)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه-، وصنَّف العلامة ناصر الدِّين الألباني - رحمه الله تعالى- جزءًا في أحاديثها .

تحصل السَّعادة في الدَّارين، والفوز، والهُدى، والصَّلاح، والنَّجاة، والفلاح .

إذ هو أصل التَّقوى، ومفتاحُ باب خشية الله جلَّ وعلا، وهو لحامله جُنَّةٌ، وهو الطَّريقُ إلى الجنَّةِ، وغيرُه لا يُوصِل صاحبه إلى المقصُود[1] أبدًا -وإن تعنَّه- .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ[2] وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ

---

(١) قال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- بعد أن بيَّن أنَّ طريق العلم -لمن سلكه، ولم يعوَجَّ عنه- أقصر الطُّرق، وأسهلها إلى الجنة، ثم قال: «**ومَن سلك طريقًا يظنُّه طريقَ الجنَّة بغير علم؛ فقد سلك أعسرَ الطُّرق، وأشقَّها، ولا يُوصِل إلى المقصود مع عُسرةٍ شديدةٍ**» انتهى «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ١٣/ ط الفاروق الحديثة)، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٧-٢٩٨/ ط الرسالة) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- : «**وقد شاع في لسان العامَّة أن** قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ .. **أنَّ التَّقوى سببُ تعليم الله**، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدَّلالة؛ لأنَّه لم يُربَط الفعلُ الثَّاني بالأوَّل، ربطَ الجزاءِ بالشَّرطِ، فلم يقل: (واتقوا الله ويُعلِّمْكم)، ولا قال: (فيُعلِّمْكم)، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أنَّ الأوَّل سببُ الثَّاني .

وقد يقال: **العطفُ قد يتضمَّن معنى الاقتران، والتَّلازم**، كما يقال: (زرني وأزورك)، و(سلِّم علينا، ونسلِّم عليك)، ونحوُ ذلك ممَّا يقتضي اقترانَ الفعلَين، والتَّعاوُضَ من الطَّرفين، كما لو قال لسيده: (اعتقني ولك علي ألف)، أو قالت المرأة لزوجها: (طلِّقني ولك ألف) أو: (اخلعني ولك ألف)؛ فإن ذلك بمنزلة قولها: (بألف)، أو (على ألف) .. عند جمهور الفقهاء، والفرق بينهما قولٌ شاذٌّ .

ويقول أحد المتعاوضَين للآخر: (أعطيك هذا وآخذ هذا)، ونحو ذلك من العبارات؛ فيقول الآخر: (نعم)، وإن لم يكن أحدهما هو السَّببُ للآخر، دون العكس، فقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، **قد يكون من هذا الباب؛ فكل من تَعليم الرَّبِّ، وتَقوَى العَبدِ، يقارب الآخرَ، ويلازمُه، ويَقتَضيه؛ فمتى علَّمه الله العلمَ النَّافع اقترنَ به التَّقوَى بحسب ذلك، ومتى اتَّقاه زادَه من العلم**، وهلمَّ جرًّا» انتهى من «مجموع الفتاوى»

عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة]، وقال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ [فاطر].

❑❑❑

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» (٢٦٩٩) من حديث الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-: «**ومن سلك طريقا**[(١)]**، يلتمس فيه علما، سهَّل الله له به طريقا إلى الجنة**»[(٢)].

❑❑❑

(١٨/ ١٧٧-١٧٨)، و«الفتاوى الكبرى» (١/ ١٠٥-١٠٦/ ط دار الكتب العلمية)، وانظر: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٧٢/ ط دار الكتب العلمية).

(١) قال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى-: «وسلوك الطريق لالتماس العلم **يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقيِّ، وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطُّرق المعنويَّة المؤدِّية إلى حصول العلم، مثل حفظه، ودارسته، ومذاكرته، ومطالعته، وكتابته، والتفهُّم له**، ونحو ذلك من الطُّرق المعنويَّة التي يتوصَّل بها إلى العلم» انتهى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٧/ ط الرسالة)، وانظر: «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» (١/ ٥٠/ ط مؤسسة قرطبة مصر) للسَّفَّاريني.

(٢) قال الإمام الرباني أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى- : «**وقد تظاهر الشَّرع، والقدر على أنَّ (الجزاء من جنس العمل)؛ فكما سلك طريقا يطلب فيه حياةَ قلبه، ونجاته من الهلاك، سلك الله به طريقًا يحصل له ذلك**» انتهى «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٧١/ ط دار الكتب العلمية).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى- في «الفتح» (١/ ١٦٠) : «قوله: (**سهل الله له طريقًا**): أي في الآخرة، أو في الدُّنيا بأن يوفِّقه للأعمال الصَّالحة الموصلة إلى الجنَّة، **وفيه بشارةٌ بتسهيل العلم على طالبه**؛ لأنَّ طلبَه من الطُّرق الموصلة إلى الجنَّة» انتهى.

وأثر (العلم النَّافع) على سلوك الفرد، والمجتمع أثرٌ عظيم، وخيرُه على حامله، والسَّاعي إليه خيرٌ عميم؛ فإنَّ كمالَ العبد، ونجاتِه في معاشه، ومعادِه متوقِّفٌ على **(العلم النَّافع)** .

قالَ الإمام الشَّافعيُّ(ت٢٠٤): سمعتُ ابن عيينة (ت١٩٨) - رحمه الله تعالى- يقول :

«لم يُعط أحدٌ في الدُّنيا شيئاً أفضل من النُّبوَّة، ولم يُعط بعد النُّبوَّة شيءٌ أفضل من طلب العلم، والفقه، ولم يُعط في الآخرة أفضل من الرحمة؛ فقيل له: يا أبا محمَّد، عمَّن هذا؟؛ فقال: عن الفقهاء كلِّهم» انتهى[(١)] .

ولهذا فالحاجة إلى العلم حاجةٌ عامَّة[(٢)]، والضَّرورة إليه ضرورةٌ قائمة .

قال الإمام المبجَّل إمام أهل السنَّة أحمد بن حنبل (ت٢٤١) - رحمه الله تعالى- :

«النَّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطَّعام، والشَّراب؛ لأنَّ الطَّعام، والشَّراب يحتاج إليه في اليوم مرَّة، أو مرَّتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس !»[(٣)] .

❑❑❑

---

(١) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٣٩) .

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٤٨/ ط دار الكتب العلمية) .

(٣) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٦١/ ط دار الكتب العلمية)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠/ ط دار الكتاب العربي) .

والعلمُ مادَّة الحياةِ[1]؛ والحياة بغير العلم حقيقة الـمَوَات؛ ولهـذا شـبَّه النَّبـيُّ - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- العلمَ لحياة النَّاس، بالغيث لحياة الأرض .

ومعلوم أنَّ الماءَ أصلُ مادَّة الحياة، كما قـال الله تبـارك وتعـالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ [الأنبياء/ ٣٠] .

فقد جاء في «صـحيح البخـاري» (٧٩)، و«صـحيح مسـلم» (٢٢٨٢) مـن حديث بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- قال :

«إنَّ مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهـدى، والعلـم كمثـل غيـث أصـاب أرضا؛ فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وكان منها أجادب أمسكت الماء؛ فنفع الله بها الناس، فشربوا منهـا، وسـقوا، ورَعوا، وأصاب طائفة منها أخرى؛ إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ.

فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم، وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» .

❑❑❑

وجـاء في الصَّـحيحين - أيضًـا-، «صـحيح البخـاري» (٧١)، و«صـحيح مسلم» (١٠٣٧) من حديث حميد بن عبد الرحمن، قال سمعت معاوية - خطيبًا- - رضي الله عنه- يقول: سمعت النبي -صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- يقول:

---

(١) ولهذا كان العلم سببا للازدهار، والرَّخاء، وعـمار البلـدان، وأمنِهـا، واسـتقرارها، وعكسه عكسه!، وانظر: ما حرَّره العلَّامة ابن خَلدون (ت٨٠٨) عن العلاقـة بـين انتشـار العلم، وازدهار الحضارات، وعظمة العمران في مقدِّمة «تاريخـه» (١/ ٥٤٨-٥٤٩/ ط دار الفكر)، وسيأتي عود لهذا - إن شاء الله تعالى- .

«**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى– :

«**وكل من أراد الله به خيرًا لا بدَّ أن يُفقِّهه في الدِّين؛ فمَن لم يفقِّهه في الدِّين لم يُرد الله به خيرًا !** .

والدِّين: ما بعث الله به رسوله؛ وهو ما يجب على المرء التَّصديق به، والعمل به» انتهى[1] .

❑❑❑

ومن هذه الخيريَّة العظيمة للعلم النَّافع :

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة] .

قال ابن عباس، وقتادة: ([**والحكمة**]:**الفقه في القرآن**)، وقال مجاهد: (**ليست بالنُّبوَّة، ولكنَّه القرآنُ، والعلمُ، والفقهُ**) .

وقال ابن وهب: قلت لمالك: وما الحكمة ؟ .

قال: (**المعرفةُ بالدِّين، والفقهُ في الدِّين، والاتِّباعُ له**)[2] .

❑❑❑

ومن هذه الخيريَّة العظيمة للعلم النَّافع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٨٠) .

(٢) «السُّنَّة» لعَبدالله بن أحمد (٨١٩)، و«تفسير الطبري» (٥/ ٥٧٦-٥٧٧)، و(٣/ ٨٧)، وقد ذكر شيخ المفسِّرين توفيقًا جميلًا بين أقوال السَّلف في تفسير (الحكمة) .

وقد حرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- أنَّ المراد بالإسماع في قوله تعالى : ﴿لَأَسۡمَعَهُمۡ﴾ **إسماعَ الفقه، لا مجرَّد الصَّوت**؛ فإنَّه حاصل، وإسماع الصَّوت قد لا ينفع سامعَه كما جرى لجميع الكفَّار الذَّين استمعوا للقرآن، ثمَّ كفروا به .

قال - رحمه الله تعالى- :

«بخلاف (**إسماع الفقه**)؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي يعطيه الله لمن فيه خيرٌ، وهذا نظيرُ ما في الصحيحين عن النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- أنَّه قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» .

وهذه الآية، والحديث يدلَّان على أنَّ مَن لم يحصل له السَّماع الَّذي يفقه معه القولَ؛ فإنَّ الله لم يَعلم فيه خيرًا، ولم يرد به خيرًا .

وأنَّ مَن علم الله فيه خيرًا، أو أراد به خيرًا؛ فلا بد أن يسمعه، ويفقِّهه؛ إذ الحديث قد بيَّن أن كلَّ مَن يرد الله به خيرا يفقهه؛ فالأوَّل مستلزمٌ للثَّاني، والصِّيغة عامَّة؛ فمن لم يفقِّهه لم يكن داخلا في العموم؛ فلا يكون الله أراد به خيرًا .

وقد انتفى في حقِّه اللَّازم؛ فينتفي الملزوم.

وكذلك قوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ بيَّن أنَّ الأوَّل شرطٌ للثَّاني: شرطًا نحويًّا، وهو ملزومٌ، وسببٌ؛ فيقتضي أن كلَّ مَن علم الله فيه خيرًا أسمعه هذا الإسماع؛ فمَن لم يُسمعه إيَّاه، لم يكن قد علم فيه خيرًا؛**فتدبَّر كيفَ وجب هذا السَّماعُ، وهذا الفقه!** .

وهذا حال المؤمنين بخلاف الَّذين يقولون بسماعٍ، لا فقهَ معه، أو فقهٍ لا سماع

معه أعني هذا السَّماع» انتهى[(١)].

❑❑❑

ولم يأمر الله تعالى نبيَّه - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- أن يسأَلَ ربَّه الزِّيادة من شيءٍ ممَّا يطلب الزِّيادة فيه إلَّا **من العلم النَّافع، وهو (عِلم الوَحي)**[(٢)]؛ فقال جل وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

قال الإمام شيخ المفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) - رحمه الله تعالى-: «**وقل يا محمد**: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ إلى ما علَّمتني، أَمرَه بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم[(٣)]» انتهى[(٤)].

وقال الإمام الجليل سفيان بن عيينة (ت١٩٨) - رحمه الله تعالى-: «**ولَم يَزَل** - صلى الله عليه وسلم- **في زيادةٍ من العلم؛ حتَّى توفَّاه اللهُ عزَّ وجلَّ**»[(٥)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٠-١١).

(٢) قال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى-: «**فالعلم الذي أمره باستزادته هو: علم الوحي، لا علم الكلام، والفلسفة، والمنطق**» انتهى من «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (٣/ ٨٧٧/ ط دار العاصمة).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى-: «**وهذا يقتضي أنه كان عالما، وأنَّه أُمر بطلب المزيد من العلم**» انتهى من «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨٤)، و«الفتاوى الكبرى» (٥/ ٥٧/ ط دار الكتب العلمية).

وقال الإمام ابن القيِّم - رحمه الله تعالى-: «**وكفى بهذا شرفًا للعلم أن أمر نبيَّه أن يسأله المزيد منه**» انتهى من «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٥٠/ ط دار الكتب العلمية)، وانظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٢/ ط دار الكتاب العربي)، و«أعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ٢٢٨-٢٢٩/ ط دار الكتب العلمية).

(٤) «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٢/ ط مؤسسة الرِّسالة/ ت: شاكر).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣١٩/ ط دار طيبة).

وقد ثبت أنَّ النبيَّ - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- كان يدعو؛ فيقول: «**اللَّهم إني أسألك علما نافعا، وأعوذ بك من علم لا ينفع**»(١).

ولهذا قال الله تبارك وتعالى لنبيِّهِ مُمتنًّا عَليه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء].

وفي الآية دليلٌ عَلَى أنَّ **العِلمِ النَّافع (شرعًا مُحكمًا، وخبرًا صَادقًا)**(٢) مِن فضل

---

(١) هذا **حديث حسن**، أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٨٣٤)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٥/ ٣٤٢/ ط مكتبة الرشد)، ومن طريقه ابن حبَّان في صحيحه (١/ ٢٧٣) - واللَّفظ له-، وعبد بن حميد في مسنده (١٠٩١/ مع المنتخب) من طريق أسامة بن زيد عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله مرفوعًا، والحديث حسن لأجل أسامة بن زيد؛ فهو حسن الحديث، وللحديث لفظٌ آخر هو: «**سلوا الله علما نافعا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع**»، وجاء في جزء «المخلِّصيَّات» (٣/ ٣٧٦-٣٧٧/ ط أوقاف قطر) للحافظ أبي طاهر المخلِّص (ت٣٩٣) زيادة في الحديث من قول جابر - رضي الله عنه- سندُها **حسنٌ ثابتٌ**، وهي: [قالَ جابرٌ: «**فأَسرعتُ إلى أَهلي؛ فقلتُ: إنِّي سمعتُ رسولَ الله** - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **يَدعو بهولاءِ الكلماتِ؛ فَادعُوا بهنَّ**]» انتهى، وأَهل جابر: زوجُه، وأخواته!، وحرصُه هذا، وشفقتُه، ونصحُه هو من أثر العلم النَّافع عليه، والله هو المُوفِّق.

(٢) وهذا المعنى هو ما يجمع أقول المُفسِّرين في الآية؛ وانظر: «زاد المسير» (١/ ٤٧٠/ ط دار الكتاب العربي).

وقال العلَّامة المحقِّق محمَّد الأمين الشِّنقيطي (ت١٣٩٣) - رحمه الله تعالى- في «أضواء البيان» (١/ ٣٠٦/ ط دار الفكر): «قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ الآية، ذكر في هذه الآية الكريمة أنَّه علَّم نبيَّه - صلى الله عليه وسلم- ما لم يكن يعلمه، وبيَّن في مواضع أخر أنه علَّمه ذلك عن طريق هذا القرآن العظيم الذي أنزله عليه، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، وقوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ إلى غير ذلك من الآيات»

الله العظيم على مَن مَنَّ به عليه، وكفى بذلكَ شرَفًا، وفَضلًا[1] .

قَـــالَ الله تعـــالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص/ ٨٦] .

وقَـالَ الله تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] .

❑❑❑

وقد جعل الله سبحانه وتعالى أهل الجهل بمنزلة العميان، الذين لا يبصرون؛ فقـال جـل وعـلا: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد/ ١٩] ؟ .

فما ثَمَّ إلَّا (عالمٌ)، أو (أعمى) .

وقد وصف سـبحانه أهـلَ الجهـل، الـذين لا يفقهـون، ولا يبصـرون، ولا

انتهى .

(١) ثمَّ وجدتُ محمَّدَ بنَ عمر الـرازيَّ (ت٦٠٦) يقـول في تفسـيره «التفسـير الكبـير» (١١/ ٢١٧/ ط دار إحياء الـتراث العـربي) : «ثـمَّ قـال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ **وهذا من أعظَم الدَّلائل على أنَّ العلـمَ أشرَفُ الفضَـائل، والمنَاقـب**؛ وذلـك لأنَّ الله تعالى ما أعطى الخلقَ من العلم إلَّا القَليل، كـما قـال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]..، ثمَّ إنَّه سمَّى ذلـكَ القليـل عظـيمًا؛ حيـثُ قـال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ ، وسمَّى جميعَ الدُّنيا قليلا؛ حيث قـال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء/ ٧٧]**!؛ وذلـك يـدلُّ على غايَة شَرَف العِلم!**» انتهَى .

ونقل هذا عنه أبو حيَّان في تفسيره «البحر المحيط» (٤/ ٦٢/ ط دار الفكر)، والقاسـمي في «محاسن التأويل» (٣/ ٣٢٧/ ط دار الكتب العلمية) .

يعقلون بأنهم ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾؛ فقال جل وعلا: صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ [البقرة] (١).

❑❑❑

ووصفَ سبحانه أهلَ العلم بكمَال العقول، وحِدَّتها، وزكائها؛ ولهذا كانوا هم المنتفعين بالأمثال التي ضربَها الله عزَّ وجلَّ لعباده؛ فقال تبارك وتعالى: وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت].

❑❑❑

ومن جليل آثار طلب العلم النَّافع على الفرد، وآثاره - أيضًا- على مجتمعه:

قولُ المولى عز وجل: ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ [التوبة].

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١) - رحمه الله تعالى- في تفسيره «الجامع لأحكام القرءان» (٨/ ٢٩٣-٢٩٤/ ط دار الكتب المصرية):

«**هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم**؛ لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- مقيم لا ينفر؛ فيتركوه وحده فَلَوۡلَا نَفَرَ بعد ما علموا أن النَّفير لا يسع جميعهم مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ، وتبقى بقيَّتُها مع النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- ليتحملوا عنه الدِّين، ويتفقَّهوا؛ فإذا رجع النَّافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا، وعلموه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٤٩/ ط دار الكتب العلمية).

وفي هـــذا : إيجـــاب التَّفقُّـــه في الكتـــاب، والســـنَّة، وأنَّـــه عـــلى الكفايـــة[1]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٨٠)، وانظر: «جزء تعليم المتعلم طريق التعلُّم» لبرهان للزرنوجي .

فائدة: قال الإمام ابن القيِّم – رحمه الله تعالى– متعقِّبًا هذه المسألة: «**وأمَّا فرض الكفاية؛ فلا أعلم فيه ضابطًا صحيحًا**؛ فإنَّ كلَّ أحد يدخل في ذلك ما يظنُّه فرضًا؛ فيدخل بعض النَّاس في ذلك علم الطبِّ، وعلم الحساب، وعلم الهندسة، والمساحة، وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصِّناعة كالفلاحة، والحياكة، والحدادة، والخياطة، ونحوها، وبعضهم يزيدعلى ذلك علم المنطق، وربما جعله فرض عين!، وبناه على عدم صحَّة إيمان المقلِّد، وكلُّ هذا هوس، وخبط؛ فلا فرض إلَّا ما فرضه الله، ورسوله؛ فيا سبحان الله! هل فرض الله على كلِّ مسلم أن يكون طبيبًا، حجَّاما، حاسبا، مهندسا،أو حائكا،أو فلاحا،أو نجارا،أو خياطا!؛ فإنَّ فرض الكفاية كفرض العين في تعلُّقه بعموم المكلَّفين، وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض، ثمَّ على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كلِّ أحد جملة هذه الصَّنائع، والعلوم؛ فإنه ليس واحد منها فرضًا على معيَّن، والآخر على معيَّن آخر، بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم؛ فيجب على كلِّ أحد أن يكون حاسبا، حائكا، خياطا، نجَّارا، فلاحا، طبيبا، مهندسا؛ فإن قال: المجموع فرض على المجموع، لم يكن قولك إنَّ كلَّ واحد منها فرض كفاية صحيحًا؛ لأن فرض الكفاية يجب على العموم...

وبالجملة: فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم، والأعمال إذا توقَّف على شيء منها كان ذلك الشيء واجبا، وجوب الوسائل، ومعلوم أنَّ ذلك التوقُّف يختلف باختلاف الأشخاص، والأزمان، والألسنة، والأذهان؛ فليس لذلك حدٌّ مقدَّر، والله أعلم» انتهى من «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٧-١٥٩/ ط دار الكتب العلمية) .

وعلى هذا فالوجوب في فروض الكفايات موجَّهٌ إلى خصوص المتأهِّلين لا إلى عموم المكلَّفين!؛ وإلى هذا أشار الشاطبي في «الموافقات» (١/ ٢٧٨/ ت مشهور) بقوله :«**الطلب وارد على البعض، ولا على البعض كيف كان، ولكن على من فيه أهليَّة القيام بذلك الفعل المطلوب، لا على الجميع عموما**» انتهى، ثمَّ أفاض في الاستدلال لهذا بمثل قوله تعالى:

دون الأعيَان[1] .

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ، وأفاد بعد ذلك (١/ ٢٨٤) أنه يمكن أن يقال:(واجب على الجميع) بمعنى أنَّ كلًّا مأمور بتحقيق هذا الواجب الكفائي منهم بالمباشرة، لمن كان قادرًا، والباقون عليهم إقامة القادرين من باب (ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب)، وهذا يجعل الخلاف لفظيًّا .

(١) وذهب الإمام عبد السلام بن سعيد التَّنُّوخي المعروف بسحنون (ت٢٤٠) - رحمه الله تعالى- إلى **أن من ظهرت عليه من طُلَّاب العلم قابليَّة العلم، والنَّجابة؛ فالعلم في حقِّه فرضُ عين**، حكاه القرافي (ت٦٨٤) في «الفروق» (١/ ٢٦٥/ ط دار الكتب العلمية)، وحكاه - أيضًا- محمَّد الطالب ابن الحاج (ت١٢٧٣) في «حاشيته على صغير ميَّارة»، وانظر: «رسالة الشرك ومظاهره» للعلَّامة الميلي (ص٤٥٥/ ط دار الرَّاية)؛ وقد أخذ - رحمه الله تعالى- هذا من قول الإمام مالك (ت١٧٩) - رحمه الله تعالى-؛ قال الإمام أبو إسحاق الشَّاطبي (ت٧٩٠) - رحمه الله تعالى- في «الموافقات» (١/ ٢٨٢-٢٨٣): «جاء عن مالك أنَّه سئل عن طلب العلم: أفرضٌ هو؟؛ فقال: «**أمَّا على كلِّ النَّاس؛ فلا**»، يعني به الزَّائد على الفرض العينيِّ، وقال - أيضا-: «**أمَّا من كان فيه موضعٌ للإمامة؛ فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجبٌ، والأخذ في العناية بالعلم على قدر النيَّة فيه**»؛ فقسَّم كما ترى؛ فجعل من فيه قَبوليَّةٌ للإمَامة ممَّن يتعيَّن عليه، ومن لا جعله مندوبًا إليه، وفي ذلك بيانٌ أنَّه ليس على كلِّ النَّاس» انتهى ثم ذكر عن سحنون نحو ما تقدَّم .

وهذه المسألة فيها قولان قال أبو زكريا النَّووي (ت٦٧٦) - رحمه الله تعالى- في «المجموع شرح المهذب» (١/ ٢٧) : «**ولو اشتغل بالفقه، ونحوه، وظهرت نجابته فيه، ورُجيَ فلاحه، وتبريزه؛ فوجهان أحدهما: يتعين عليه الاستمرار؛ لقلَّة من يحصِّل هذه المرتبة؛ فينبغي ألَّا يضيع ما حصَّله، وما هو بصدد تحصيله، وأصحُّهما لا يتعيَّن**؛ لأنَّ الشُّروع لا يغير المشروع فيه عندنا إلَّا في الحجِّ، والعمرة» انتهى، والوجه الأوَّل جزم به القاضي حسين، والثاني اختاره الرَّافعي، والنَّووي، والمشهور عند الشافعيَّة أنَّ فرض الكفاية يلزم بالشُّروع فيه، قاله ابن الرِّفعة، قال الزركشي- : «ولم يرجِّح الرَّافعي، والنَّووي في هذه

ويدلُّ عليه - أيضا- قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء]، **فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب، والسُّنن**» انتهى .

❑❑❑

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- :

«**وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية**[1] **إلَّا فيما يتعيَّن؛ مثل طلب كلِّ**

القاعدة شيئًا بخصوصه، وإنَّما صحَّحوا في أفراد مسائلها ما يخالف الآخر» انتهى من«البحر المحيط في أصول الفقه» (١/ ٣٣٠) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى-: «**مضت السنَّة بأنَّ الشُّروع في العلم، والجهاد يُلزِم كالشُّروع في الحجِّ**، يعني: أن ما حفظَه من علم الدِّين، وعلم الجهاد ليس له إضاعته .. **فالمُرصَدون للعلم عليهم للأمَّة حفظ علم الدِّين، وتبليغه؛ فإذا لم يبلِّغوهم علمَ الدِّين، أوضيَّعوا حفظه، كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين**، قال: **وكذلك أهل العلم الَّذين يحفظون على الأمَّة الكتاب، والسنَّة: صورةً، ومعنى؛ مع أن حفظ ذلك واجب على الأمَّة عمومًا على الكفاية منهم**، ومنه ما يجب على أعيانهم، وهو علم العين الَّذي يجب على المسلم في خاصَّة نفسه؛ **لكنَّ وجوب ذلك عينًا وكفاية على أهل العلم الَّذين رأسوا فيه، أو رزقوا عليه، أعظم من وجوبه على غيرهم؛ لأنَّه واجب بالشَّرع عمومًا، وقد يتعيَّن عليهم؛ لقدرتهم عليه، وعجز غيرهم؛ ويدخل في القدرة استعداد العقل، وسابقة الطلب، ومعرفة الطُّرق الموصلة إليه من الكتب المصنَّفة، والعلماء المتقدِّمين، وسائر الأدلَّة المتعدِّدَة، والتفرُّغ له عمَّا يشغل به غيرهم**» انتهى المراد من «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٨٦-١٨٧)، وانظر: «جامع الرسائل» (١/ ٢٤٠/ ت رشاد سالم) وانظر: «شرح الطَّحاوية» (١/ ٨-٩) .

قلتُ: أطلتُ في المسألة لقلَّة الكلام فيها، وعزَّتها في مسائل الباب؛ مع ما نراه في زماننا من مهاجرة أهل النَّجابَة (طلبَ العلم النَّافع) إلى (غيره)؛ فنسأل الله صلاح الحال .

(١) **قلتُ**: ولو نظرتَ إلى زماننا هذا الَّذي اشتدَّت فيه الحاجة إلى العلم النَّافع؛ لظهور البدع، وكثرة الجهل، وتطَاول الفتن، ثمَّ تساءلت: هل حصل من طلاب العلم ما يسقط به عنهم فرض الكفاية، أو يتمُّ به المقصود ؟؛ لعلمت ما وقع من التَّفريط، والغفلة، والله

واحد علم ما أمره الله به، وما نهاه عنه؛ فإن هذا فرض على الأعيان» انتهى[(١)] .

❑❑❑

وقال العلامة المحقِّق عبد الرحمن بن ناصر بن سِعدي (ت١٣٧٦) - رحمه الله تعالى- في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» عند الآية :

«ففي هذا: **فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدِّين، وأنَّه أهم الأمور** .

وأنَّ من تعلَّم علمًا؛ فعليه نشره، وبثُّه في العباد، ونصيحتهم فيه؛ فإنَّ انتشار العلم عن العالم، من بركته، وأجره، الذي ينمى له .

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون؛ فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟، وأي نتيجة نتجت من علمه ؟ .

وغايته أن يموت؛ فيموتَ علمه، وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا، ومنحه فهمًا .

وفي هذه الآية - أيضا- :

وحده المستعان .

وإنَّك - اليوم- لتمُرُّ قرًى، ومدنًا، وبلدانًا كبيرة، لا تجد بها من طلَّاب العلم النَّافع مَن يكفي حاجَّة النَّاس، بل قد لا تجد بها أحدًا يعتمد عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولله درُّ الإمام الشَّافعيِّ؛ إذ قال : «**لو أنَّ أهل كُورَةٍ** [أَي: مدينة، وناحية] **اجتمعوا على ترك طلب العلم؛ لرأَيتُ للحاكم أن يجبرهم على طلب العلم**» انتهى من «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٣٩) .

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٨٠)، وانظر: «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٨٩-٢٩٠)، و«مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٢٣-٢٤/ ط الفاروق الحديثة)، و«جزء تعليم المتعلم طريق التعلُّم» للبرهان الزرنوجي.

دليل، وإرشاد، وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي :

أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعدُّوا لكلِّ مصلحة من مصالحهم العامَّة مَن يقوم بها، ويوفِّر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم (١) .

---

(١) فإن قال قائل : فالعلوم الموجودة اليوم بأيدي الكفَّار، والَّتي أجادوا فيها، وبلغوا الغَاية في تقنياتٍ باهرة، وصناعاتٍ عجيبة؛ هل هي من العلم النَّافع ؟ .

فالجوابُ أن يقال: العلمُ النَّافع ما ينفع العبد في دنياه، وفي آخرته، والحضارة الصناعية الموجودة اليوم، هي من أسباب رغد العيش الظاهر، ولكنَّها ليست سبيلا إلى حياة الرُّوح، الذي لا حياة للإنسان إلَّا بها، ولا سعادة إلَّا في تحقيقها .

ولهذا لم تحقِّق هذه الحضارة الماديَّة الصِّرفة السعادةَ لأهلها، كما أقرُّوا هم بأنفسهم على ذلك، بل صارت – بمجرَّدها!– من أكبر أسباب الاكتئاب، والشَّقاء، والحزن، وكثرة الانتحار، والإدمان على المخدِّرات، وغير ذلك .

وقد أخبرنا الله تعالى عن أمم وأقوام كان لهم من بديع الصِّناعات، ما نحار اليوم في فهمه من نظرنا في بقايا آثارهم، وما ثبت في القرآن من أخبارهم، وقد زالت دنياهم عنهم، وزالوا عنها، وهم الآن مرتهنون بأعمالهم عند الله تعالى، وصدق الله العظيم: أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ [الشعراء] .

وقد أجاد العلَّامة المحقِّق محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) – رحمه الله تعالى– في الجواب عن هذا؛ فقال :

«**وعلم هؤلاء الكفَّار نَفي الله عنه اسمَ العلم الحقيقي، وأثبت له أنَّه (علمُ ظاهرٍ من الحياة الدنيا)**، وذلك في قوله: وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ [الروم] .

فحِذقُ الكفَّار في الصِّناعات اليدويَّة، كحذق بعض الحيوانات في صناعتها!، بإلهام الله

ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم، ودنياهم، ولـو تفرَّقـت الطـرق، وتعـددت المشـارب؛ فـالأعمال متباينـة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النَّافعة في جميع الأمور» انتهى .

❑❑❑

وأختِمُ بكَلمةٍ جَليلة، ونصيحَةٍ نبيلَة، أوصَى بهـا الإمـام الكَبـير أَبـو عبـد الله الشَّافعيُّ (ت٢٠٤) - رحمه الله تعالى- طالبَ العلم؛ فقالَ:

«والنَّاس في العلم طبقاتٌ، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به .

فحَقٌّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طَلَبِه، وإخلاص النيَّة لله في استدراك علمـه نصًّـا، واسـتنباطاً[1]**، والرَّغبة إلى الله في العَون عليه؛ فإنَّه لا يُدرَك خيرٌ إلَّا بعونه.**

فإنَّ من أدرك علم أحكام الله في كتابـه نصـاً واسـتدلالاً، ووفقـه الله للقـول والعمل بما علِم منه :

فاز بالفضيلة في دينه، ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرت في قلبـه الحكمـة،

لها ذلك؛ فالنَّحل تبني بيت عسلها على صورة شكل مسدس، يحارُ فيه حذاق المهندسين .

ولما أرادوا أن يتعلَّموا منها كيفية ذلك البناء، وجعلوها في أجبـاح زجـاج؛ لينظـروا إلى كيفيَّة بنائها، أبت أن تعلِّمهم؛ فطلت الزجاج بالعسل قبل البناء!؛ كيلا يروا كيفيـة بنائهـا!، كما أخبرتنا الثقات بذلك انتهى من «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٢/ ٢٦٢/ ط دار الفكر بيروت – لبنان/ ١٤١٥ – ١٩٩٥م) .

(١) قال الزَّعفراني: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول: «**مَن تعلَّم علمًا؛ فَليَـدقِّق فيـه؛ لـئلا يضـيع دَقِيقُ العلم**» انتهى «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٢) .

قُلتُ: وتحقيقُ مسائل العلم، والتَّدقيقُ فيها سمة المحقِّقين من أهل العلـم، وبهـا يحصـلُ التَّفاوت بين العلماء؛ لأنَّه رتبةُ الاستنباط، والاجتهاد، والله المُوفِّق، والهادي .

واستوجب في الدين موضع الإمامة» انتهى[1].

❑❑❑

(١) «الرِّسالة» (ص١٩).

ودونك أيُّها الأخ الحبيب، والطَّالب النَّجيب، والفاضل الأَريب :

هذه الإضـاءَة العلميَّـة، والمنحَـة الرضـيَّة، والنَّصـيحَة الأخويَّـة، المسـمَّاة بـ «**العِلمُ النَّافع وأَثَرُهُ عَلَى سُلُوكِ الفَرد والمُجتَمَع**» .

جاءتك في أبهى زينتها، وأجمل حُلَّتهـا، يفـوح عطرهـا، ويَعبَـق في الأرجـاء أريجها .

جاءتك وقد طوت في طيَّات حُلَلها: مقدِّمة، وبابين، وخاتمة .

الباب الأول: فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه .

وفيه فصلان :

الفصل الأول: نماذج من أثر العلم النَّافع على حامليه في التَّـزوُّد مـن الطاعـة، والعبادة .

الفصل الثاني: نماذج من أثر العلم على حامليه في أوقاتِ الفتن العظام .

الباب الثاني: من حميد أثر العلم النَّافع على المجتمعات .

وفيه فصول خمسة :

الفصل الأول: أثر العلم النَّـافع عـلى الفـرد والمجتمـع في توحيـد الله تعـالى، وإخلاص العبادة له وحده، واتِّباع رسوله، واجتناب البدع .

الفصل الثَّاني: أثر العلم النَّافع في توحيد كلمة المسلمين .

الفصل الثَّالث: ومن آثار العلم النَّافع في حفظ مجتمعات المسلمين : ما يكـون من أثر العلم النَّافع في إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في النـاس، والتفقُّه في فقهها، والعمل فيها على مقتضى الشريعة .

الفصل الرابع: أثر العلـم النَّـافع في ثبـات المجتمعـات، وحفظهـا، ونمائهـا، وازدهارها .

الفصل الخامس: أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة في أمنها، وسلامتها من الفتن .

الخاتمة

وفيها ثلاثة فصول :

الفصل الأول: في بيان أن نجاة الأمَّة من الفتن، والضَّلال هو بالرَّجوع إلى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم، واجتناب أشباه العلماء من أهل الفتن، والزيغ .

الفصل الثاني: طريق أخذ العلم النَّافع، وسبيل نيله .

الفصل الثالث: صفة ما ينبغي أن يكون عليه العالم، وطالب العلم النَّافع من الزهد في الدُّنيا، والتَّرفُّع عن مطامعها، وصيانة نفسه عن التَّذلُّل، والتَّزَيُّن لأهل الغنى، واليسَار، والسَّلاطين .

❑❑❑

هذا، واللهَ الكريم العظيم أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، إنَّه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله، وصحبه، وسلَّم .

ليلة الإثنين ٢٥/ شوال/ ١٤٣٩

المملكة العربية السعوديَّة – الرِّياض

حرسها الله تعالى، وسائر بلاد المسلمين

وتمَّ محرَّرا في أوَّل شهر ذي الحجة ١٤٣٩ بمكَّة المكرَّمة

ثمَّ راجعتُه في ٨/ ٤/ ١٤٢٢

البَابُ الأَوَّلُ

فَضَائلُ العِلمِ النَّافعِ

وآثَارُهُ الحَمِيدَةُ عَلَى حَامِلِيهِ

البَابُ الأَوَّل

فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه

إن فضائل العلم النَّافع كثيرة جدًّا، صنِّفت فيها المصنَّفات الكثيرة في سائر الأزمان، فلا يكاد يخلو عصر عن مصنَّفات في الحثِّ على العلم، وبيان فضائله .

وفي هذا المختصر أنبِّه على ما يكون زادًا لطالب العلم في سيره، ومنارًا له في مسيره، والله هو الموفق والهادي .

❑❑❑

فمن أشهر فضائل العلم النَّافع على أهله، وهو من آثاره الجليلة عليهم :

[١] أنَّ ربنا - جل وعلا- رفع مكانة أهل العلم، وكفى بذلك شرفًا، وفضلا لهم؛ إذ شرَّفهم ربُّهم سبحانه، وأعلا شأنهم، وأكرمهم في الآخرة، والدُّنيا، وفضَّلهم على كثير من المؤمنين .

يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة] .

فدلَّت هذه الآية الكريمة على رفعة شأن المؤمنين، ودلَّت - أيضًا- على رفعة شأن (أهل العلم) في أهل الإيمان الصادقين .

قال الإمام المجتهد شيخ المفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) - رحمه الله تعالى- في تفسيره النَّافع «جامع البيان» (٢٣/ ٢٤٦-٢٤٧/ ط مؤسسة الرِّسالة/ ت: شاكر) :

«يقول تعالى ذكره: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾ **المؤمنين منكم أيها القوم بطاعتهم ربهم**، فيما

أمرهم به من التفسح في المجلس إذا قيل لهم تفسحوا، أو بنشوزهم إلى الخيرات إذا قيل لهم انشزوا إليها، **ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين، الذين لم يؤتوا العلم بفضل علمهم درجات، إذا عملوا بما أمروا به .**

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة[1]، قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ **إن بالعلم لأهله فضلا، وإنَّ له على أهله حقًا، ولعمري للحقُّ عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله).**

وكان مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير يقول: (**فضل العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**) » انتهى المراد .

وقال الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢) - رحمه الله تعالى- في «فتح الباري» (١/ ١٤١/ ط دار المعرفة) :

«**ورفعة الدرجات تدلُّ على الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدَّرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة، وحسن الصِّيت، والحسيَّة في الآخرة بعلو المنزلة في الجنَّة**» انتهى المراد .

❑❑❑

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (ت٢٦١) - رحمه الله تعالى- (رقم/ ٨١٧) من حديث الإمام ابن شهاب الزهري، عن عامر بن واثلة، أن نافع ابن عبد الحارث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة .

فقال:«**من استعملت على أهل الوادي ؟** .

---

(١) وهذا إسناد صحيح .

فقال: ابن أبزى .

قال: **ومن ابن أبزى؟** .

قال: مولى من موالينا .

قال: **فاستخلفت عليهم مولى؟** .

قال: **إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض** .

قال عمر: أما إن نبيكم - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **قد قال** :

«**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين**[1]» .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- : «.. **ومصداق ذلك ما وجد في التابعين ومن بعدهم**، من أبناء فارس الأحرار، والموالي، مثل الحسن، وابن سيرين، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم، إلى من وجد بعد ذلك فيهم من المبرزين في الإيمان، والدين، والعلم؛ حتى صار هؤلاء **المبرزون أفضل من أكثر العرب**، وكذلك في سائر أصناف العجم من الحبشة، والروم، والترك، وبينهم سابقون في الإيمان، والدين لا يحصَون كثرة، على ما هو معروف عند العلماء .

إذ الفضل الحقيقي: هو اتباع ما بعث الله به محمَّدا - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **من الإيمان، والعلم باطنا، وظاهرا؛ فكلُّ من كان فيه أمكن: كان أفضل** .

والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب، والسنة مثل: (الإسلام)، و(الإيمان)، و(البر)، و(التقوى)، و(العلم)، و(العمل الصالح)، و(الإحسان)، ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان (عربيا)، أو (عجميا)، أو (أسود)، أو (أبيض)، ولا بكونه (قرويا)، أو (بدويًّا)» انتهى من «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤١٤-٤١٥) .

فائدةٌ: جعل الله سبحانه وتعالى في نبيه آدم - عليه السلام- من صفات الكمال ما فضَّله به على سائر المخلوقات، ولـمَّا أَراد الله سبحانه أن يظهر لملائكته فضل آدم - عليه السلام-، وشرفه، أظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمُه، فدلَّ على أنَّ العلم أشرفُ ما في الانسان، وأنَّ فضل آدم، وشرفه إنَّما هو بالعلم، ونظير هذا أن الله سبحانه وتعالى لَمَّا أراد إظهارَ فضل نبي

ونفى الله تبارك وتعالى المساواة بين أهل العلم، وغيرهم؛ فقال جل ذكره: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ [الزمر] .

فدلَّ هذا على رفيع مكانة أهل العلم، مزيد فضل الله تعالى عليهم، وإجلاله تعالى لهم، وتشريفه جل جلاله لهم .

ولرَفيع مكانة أهل العلم، وطُلَّابه، وجليل أقدارهم عرَفت لهم هذا الفضلَ الفائق، والشَّرفَ السامق (ملائكةُ الله تعالى)، الَّذين قال الله تعالى فيهم: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنبياء]؛ فهي تعظِّم شأن (طالب العلم)، وتعرف له فضلَه، وترفع له قدرَه، وتخضع، وتتخشَّع تعظيمًا لطالب العلم النَّافع، وهل يعرف الفضل إلَّا أهلُه ؟ .

❑❑❑

جاء[1] في «مسند أحمد» (٥/ ١٩٦)، و«سنن أبي داود» (٣٦٤١)، والترمذي

يوسف - عليه السلام-، وشرفه على أهل زمانه كلِّهم، أظهر للملك، وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير؛ فحينئذ قدَّمه، ومكَّنه، وسلَّم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه، على ما رآه من حسن وجهه، وجمال صورته، ولكنه لـمَّا ظهر له حسن صورة علمه، وجمال معرفته، أطلقه من ا لحبس، ومكنه في الأرض؛ فدلَّ على أن (صورة العلم) عند بني آدم أبهى، وأحسن من الصورة الحسية، ولو كانت أ جمل صورة أفاده ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢-٥٣)، وانظر في الكلام على جمال (صورة العلم): «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص٢٠١) .

(١) هذا الحديث يدور إسناده على رواية (داود بن جميل عن كثير بن قيس)، و(داود ابن جميل) مجهول، و(كثير بن قيس) تابعي، قليل الحديث جدًّا، وقد أشار الدَّارقطني في «العلل» (٦/ ٢١٦/ س١٠٨٣) إلى ضعف كثير بن قيس، فهذا الإسناد ضعيف، والحديثُ لألفاظه شواهد صحيحة؛ ولعلَّه لهذا علَّق الإمام البخاري في «صحيحه» بعض ألفاظ

(٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وغيرهم من حديث كثيرِ بن قيس، قال: « [**كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجدِ دمشقَ، فجاءه رجلٌ**] .

فقال : **ما أقدمك، أَي أخي ؟** .

قال : [**يا أبا الدَّرداء، إني جئتك من مدينةِ الرسولِ** - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **لحديثٍ**] **بلغني أنك تحدِّث به عن رسول الله** صلى الله عليه وسلم ؟ .

قال : **أما قدمتَ لتجارة ؟** .

قال : لا .

قال : **أما قدمتَ لحاجة ؟** .

قال : لا .

قال : **ما قدمتَ إلَّا في طلب هذا الحديث ؟!** .

قال : نعم .

قال : **فإنِّي سمعتُ رسولَ الله** - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **يقول** :

«مَن سلَكَ طريقاً يَطلُبُ فيه علماً، سَلَكَ الله عزَّ وجلَّ به طريقاً إلى الجنَّة .

وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنحتَها رضاً لطالبِ العلم .

وإنَّه ليستغفِرُ للعالِمِ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرض؛ حتَّى الحيتانُ في الماء.

وفضلُ العالِمِ على العابِدِ كفضل القَمَرِ [ليلةَ البدرِ] على سائر الكواكِبِ .

الحديث في كتاب العلم في ترجمة الباب العاشر منه، ومن شواهد الحديث: حديثُ صفوان الآتي - إن شاء الله تعالى-، ومنها: حديث أبي هريرة المتقدِّم «**ومن سلك..**» أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وغيرها، وللحافظ ابن رجب جزء مفرد نفيس جدًّا في شرح حديث أبي الدرداء هذا، سمَّاه: «ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء»، وانظر: «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ١-٦٠/ ط الفاروق الحديثة) .

وإنَّ العلماءَ [هم] ورثةُ الأنبياء(١)**، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثُوا ديناراً، ولا دِرهماً**(٢)**، وإنَّما ورَّثُوا العِلمَ**(٣)**؛ فمَن أخَذَ به أخَذَ بحظٍّ وافِر**».

---

(١) قال الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- : «**والمراد بهذا أن العلماء ورثوا الأنبياء فيما خلَّفوه، وأن الَّذِي خلَّف الأنبياءُ هو العِلم النَّافع، فمن أخذ العِلم، وحصَل له؛ فقد حصل له الحظ العظيم الوافر الَّذِي يُغبط به صاحبه**» انتهى «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٥٠/ ط الفاروق الحديثة) .

(٢) قال الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- : «يريد أنَّهم لم يُورَث عنهم سوى العِلم، وهذا يبين المراد بقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل/١٦]، وقوله تعالى عن زكريا أنَّه قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[مريم]؛ **إنما أريد به ميراث العِلم، والنبوَّة لا المال؛ فإن الأنبياء لا يجمعون مالاً يتركونه ..، وكلُّ هذا إشارةٌ إلى أن الرسل لم تبعث بجمع الدنيا، وتوريثها لأهليهم؛ وإنما بعثوا بالدَّعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، والعلم النَّافع، وتوريثه لأُمَمهم**» انتهى «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٥١و٥٢/ ط الفاروق الحديثة) .

(٣) قال الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- : «**فيه إشارة إلى أمرين: أحدهما: أن العالم، الذي هو وارثٌ للرسول حقيقةً، كما أنه ورثَ علمه؛ فينبغي أن يورِّثَه كما ورَّث الرسولُ العلمَ**، وتوريث العالم العلمَ هو أن يخلِّفه بعده، بتعليمٍ، أو تَصنيفٍ، ونحو ذلك ممَّا يُنتفع به بعده، وفي الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلَّا من ثلاث: علم نافع، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له**»؛ فالعالم إذا علَّم مَن يقوم به بعده؛ فقد خلَّف علمًا نافعًا، وصدقة جارية؛ لأن تعليم العلم صدقة، كما سبق عن معاذ وغيره، والذين علَّمهم بمنزلة أولادِ الصالحين يدعون له؛ فيجتمع له بتخليف علمه هذه الخصال الثلاث .

والأمر الثاني: أن من كمال ميراث العالم للرسول - عليه السلام- **أن لا يخلِّف الدُّنيا كما لم يخلِّفها الرسول**، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول، وبسنَّته في زهده في الدُّنيا، وتقلُّله منها، واجتزائه منها باليسير» انتهى «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٥٢-٥٣/ ط الفاروق

وثبتَ - أيضًا- في «مسند أحمد» (٤/ ٢٣٩)، والترمذي (٣٨٤٥)، والنسائي (١٥٨)، وابن ماجه (٢٢٦) من حديث عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، قال :

«**أتيت صفوان بن عسال المرادي؛ فقال : ما جاء بك ؟** .

قال: فقلت : جئت أطلب العلم .

قال: **فإني سمعت رسول الله** - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم-، **يقول** :

«**ما من خارج يخرج من بيتٍ في طلب العلم؛ إلَّا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع**» .

هذا حديث حسنٌ لذاته[1] .

❑❑❑

الحديثة) .

(١) **فائدة** : أخرج الطبراني في كتاب «السُّنة»؛ فقال: «سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى السَّاجي قال:(**كنا نمشي في بعض أزقَّة البصرة إلى باب بعض المحدثين؛ فأسرعنا المشي، وكان معنا رجلٌ ماجنٌ متَّهمٌ في دينه؛ فقال:(ارفعوا ارجلكم عن أجنحة الملائكة!،لا تكسروها !!، كالمستهزيء)؛ فما زال من موضعه؛ حتَّى جفَّت رجلاه، وسقط**)، والإسنادُ صحيحٌ .

وأخرج القصَّة الدِّينَوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٥/ ٢٩٤-٢٩٥/ ط دار ابن حزم)؛ فقال : «أخبرنا زكريا بن عبد الرحمن البصري؛ قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: (**كنا عند بعض المحدِّثين بالبصرة؛ فحدَّثنا بحديث النبي** صلى الله عليه وسلم: «**إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم**»، **وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة؛ فجعل يستهزئ بالحديث، فقال: والله لأقطرن غدا نعلي؛ فأطأ بهما أجنحة الملائكة، قال: ففعل ومشى في النَّعلين، فجفَّت رجلاه جميعا، ووقعت في رجليه جميعا الآكلة**)، وزكريا بن عبد الرحمن لم أجد ترجمته - الآن-، وأحمد بن شعيب البصري، قال مسلمة: (زاهد من الزهَّاد)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٣٩)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٤/ ط دار الكتب العلمية) .

[٢] ومن عظيم رفعة الله تعالى لأهل العلم :

أن الله تبارك وتعالى استشهد أهل العلم على أعظم مشهود عليه، وهو توحيد الله تعالى؛ فقال عز وجل: شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ [آل عمران] .

قال الإمام الرباني أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى- مبيِّنًا ما في الآية من وجوه تفضيل أهل العلم، وبيان رفيع مكانتهم، وجليل قدرهم؛ فقال :

«**استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده؛** فقال: شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ .

وهذا يدل على فضل العلم، وأهله من وجوه :

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر .

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم، وتعديلهم؛ فان الله لا يستشهد من خلقه إلَّا العدول ..

الخامس: أنه وصفهم بكونهم أولى العلم، وهذا يدلُّ على اختصاصهم به، وانهم أهله، وأصحابه ليس بمستعار لهم .

السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه، وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه، وهم ملائكته، والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا .

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به، وأعظمه، وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا الله .

والعظيم القدر إنما يَستَشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق، وساداتهم .

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجَّة على المنكرين؛ فهم بمنزلة أدلته، وآياته وبراهنيه الدَّالة على توحيده .

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمِّن لهذه الشهادة الصَّادرة منه، ومن ملائكته، ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته .

وهذا يدلُّ على شدَّة ارتباط شهادتهم بشهادته؛ فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم، وأنطقهم بهذه الشهادة؛ فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة، وإنطاقا، وتعليما، وهم الشاهدون بها له إقرارا، واعترافا، وتصديقا، وإيمانًا .

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة؛ فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحقَّ المشهود به؛ فثبت الحقُّ المشهود به فوجب على الخلق الاقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم، ومعادهم، وكلُّ من ناله الهدى بشهادتهم، وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم؛ فلهم من الأجر مثل أجره، وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلَّا الله، وكذلك كلُّ من شهد بها عن شهادتهم؛ فلهم من الأجر مثل أجره - أيضا- .

فهذه عشرة أوجه[1] في هذه الآية» انتهى المراد[2]، وهو كما تراه جودةً،

---

(١) وزاد الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- وجهًا آخر، وهو: **أن الله تعالى لم يفرد الأنبياء بالذكر في الآية؛ بل أدخلهم في مسمَّى العلماء، وكفى بهذا شرفًا للعلماءِ أنَّهم يُسمَّون باسم يجتمعون هم، والأنبياء فيه**، وانظر: «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ١٣/ ط الفاروق الحديثة) .

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٤٨-٤٩/ ط دار الكتب العلمية) .

ونفاسَةً.

❑❑❑

[٣] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه :

أنَّ العلم النَّافع أعظم أسباب خشية الله تعالى .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر/٢٨] .

قال الإمام أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى- :

«**أخبر [سبحانه] أنَّهم أهل خشيته، بل خصَّهم من بين الناس بذلك .**

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ ،**وهذا حصر لخشيته في أولى العلم**»[1] .

---

(١) قال الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- : في صدر رسالته، وجزئه «**الكلام على قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ » :

«**دلَّت هذه الآية على:(إثبات الخشية للعلماء) بالاتِّفاق، وعلى (نفيها عن غيرهم) على أصحِّ القولين، وعلى (نفي العلم عن غير أهل الخشية)** - أيضًا-»، ثمَّ قال: «وأمَّا دلالة الآية على الثَّالث، وهو:**(نفي العلم عن غير أهل الخشية)؛ فمن جهة الحصر** - أيضا-؛ **فإنَّ الحصرَ المعروف المطرِّد هو حصرُ الأوَّل في الثَّاني، وهو**- هاهنا- **حصر الخشية في العلماء، وأمَّا حصر الثَّاني في الأوَّل؛ فقد ذكره الشيخ أبو العبَّاس ابن تيميَّة** -رحمه الله-، وأنَّه قد يكون مرادًا - أيضًا- فيصير الحصر من الطَّرفين، ويكونان متلازمين» انتهى من «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٧٧١و٧٨٣/ ط الفاروق الحديثة) .

واختيار شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى- المذكور هو قوله: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ **يقتضي أنَّ كلَّ مَن خشى الله فهو عالم؛ فإنَّه لا يخشاه إلَّا عالم [فكلُّ خاش لله؛ فهو عالم، هذا منطوق الآية]، ويقتضي**- أيضاً- **أن العالم من يخشى الله** كما قال السَّلف، [وأكثر العلماء]»، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩٢-٢٩٣)، و(١٦/ ١٧٨)، و(٧/ ٥٣٩) .

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة] .

وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء؛ فدلَّ على أنَّ هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النَّصَّين .

وقال ابن مسعود - رضى الله عنه -: (**كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا**) » انتهى[(١)] .

وقد صنَّف الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- جزءا نافعًا في هذه الآية سمَّاه : «**الكلام على قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ »[(٢)] .

أطال فيهفي تقرير بحوث هذه الآية؛ فأفاد، وأجاد أحسن الله جزاءه .

❑❑❑

[٤] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه :

أنَّ طلب العلم أفضل العبادات بعد أداء الفرائض، وهو خير من نافلة العبادات من صلاة، وصوم، وغير ذلك من نوافل الطاعات[(٣)] .

ويتأكَّد هذا الفضل الكبير عند كثرة الجهل، وظهور الأهواء، والبدع، ودروس العلم .

ولهذا قال سفيان الثوري (ت١٦١) - رحمه الله تعالى- : «**ما أعلم على وجه**

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٥١/ ط دار الكتب العلمية)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠/ ط دار الكتاب العربي) .

(٢) وانظرها في «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٧٦٩-٨٠٩/ ط الفاروق الحديثة) .

(٣) وانظر ما سيأتي - إن شاء الله تعالى- برقم [٥] .

الأرض من الأعمال أفضل من طلب الحديث لمن أراد به وجه الله»[1] .

وقال - أيضًا-: «**لا أعلم شيئا أفضل منه يعني الحديث لمن أراد الله به**» .

وقال:«**إن الناس يحتاجون إليه في طعامهم، وشرابهم**»[2] .

وقال وكيع بن الجراح (ت١٩٦) - رحمه الله تعالى-: «**ما عبد الله بشيء أفضل من الحديث**» .

وقال - أيضًا- : «**لولا أن الحديث أفضل عندي من التسبيح ما حدثَّت**»[3] .

وقال زاهد بغداد بشر بن الحارث (ت٢٢٧) - رحمه الله تعالى-: «**لا أعلم على وجه الأرض عملا أفضل من طلب العلم والحديث لمن اتقى الله، وحسنت نيته فيه؛ وأما أنا، فأستغفر الله من كل خطوة خطوت فيه**»[4] .

وقال يحيى بن يمان (ت١٨٩) - رحمه الله تعالى- : «**ما كان طلب الحديث خيرا منه اليوم** .

قلنا: يا أبا عبد الله إنهم يطلبونه، وليس لهم نيَّة ؟ .

قال: طلبُهم إيَّاه نيَّة»[5] .

وقال ابن وهب كنت عند مالك بن أنس (ت١٧٩)؛ فحانت صلاة الظهر، أو العصر وأنا أقرأ عليه، وأنظرُ في العلم بين يديه؛ فجمعت كتبي، وقمت لأركع. فقال لي مالك: **ما هذا ؟** .

---

(١) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص٨١/ ط دار إحياء السنة) .

(٢) «شرف أصحاب الحديث» (ص٨١/ ط دار إحياء السنة) .

(٣) «شرف أصحاب الحديث» (ص٨٢و٨٣/ ط دار إحياء السنة) .

(٤) «شرف أصحاب الحديث» (ص٨٢/ ط دار إحياء السنة) .

(٥) «شرف أصحاب الحديث» (ص٨٦/ ط دار إحياء السنة) .

فقلت: أقوم إلى الصلاة .

فقال: «**إن هذا لعجب ما الذي قمت إليه أفضل من الذي كنت فيه إذا صحت فيه النية**» .

وقال الربيع سمعت الشافعي (ت٢٠٤) يقول: «**طلب العلم أفضل من صلاة النافلة**» .

وقال - أيضًا- : «**ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم**» .

قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ .

قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله**»[(١)] .

وقال - أيضًا- : «**ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم**»[(٢)]، ونصَّ على هذا أبو حنيفة (ت١٥٠) - أيضًا-[(٣)] .

---

(١)«آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص٧٢)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٣٨) .

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٣٨-١٤٠)، و«المجموع شرح المهذَّب» للنَّووي (١/ ٢٠و٢١/ ط دار الفكر)، وفيه عن الشافعي، وغيره عبارات لطيفة في فضل العلم .

(٣) قال الإمام أبو زكريَّا النَّووي (ت٦٧٦) - رحمه الله تعالى-: «**والحاصلُ: أنَّهم متَّفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصَّوم، والصَّلاة، والتَّسبيح،** ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله - سوى ما سبق- : أن نفع العلم يعمُّ صاحبه، والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصَّة به؛ ولأن العلم مصحِّح؛ فغيره من العبادات، مفتقرٌ إليه، ولا ينعكس؛ ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبِّدون بذلك؛ ولأن العابد تابع للعالم، مُقتدٍ به، مقلِّد له في عبادته، وغيرِها، واجبٌ عليه طاعته، ولا ينعكس؛ ولأنَّ العلم تبقى فائدتُه، وأثرُه بعد صاحبه، والنَّوافل تنقطعُ بموت صاحبها؛ ولأنَّ العلم صفة لله تعالى؛ ولأنَّ العلم فرض كفاية - أعني: العلم الذي كلامُنا فيه- فكان

قال الإمام أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى- :

«**ولما كان طلب العلم، والبحث عنه، وكتابته، والتَّفتيش عليه من عمل القلب والجوارح؛كان من أفضل الأعمال**[(١)] .

ومنزلته من عمل الجوارح، كمنزله أعمال القلب من الإخلاص، والتوكل، والمحبَّة، والإنابة، والخشية، والرِّضا، ونحوها من الأعمال الظَّاهرة» انتهى[(٢)] .

❑❑❑

وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) - رحمه الله تعالى- معلِّقًا على كلام السَّلف، ومقرِّرًا وجهًا آخر لتفضيل طلب العلم على سائر التَّطوُّعات، وهو وجهٌ عظيمٌ- :

«قال الخطيب **قلت**:

أفضل من النافلة» انتهى المراد من «المجموع شرح المهذَّب» للنَّووي (١/ ٢١-٢٢/ ط دار الفكر)، ووصف ابن القيِّم هذا التَّرجيح بأنه **فصل الخطاب في هذه المسألة**؛ فانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٩-١٢٠و١٧٧-١٧٩/ ط دار الكتب العلمية)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠/ ط دار الكتاب العربي)، و«مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٣٥-٤٤/ ط الفاروق الحديثة)، وفيه بحثٌ رائقٌ فائقٌ في الانتصَار لكَلام أئمَّة السَّلفِ هذا .

وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦١) .

(١) فـ[**مذكراته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام، والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب، والطعام**] قاله في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠/ ط دار الكتاب العربي) .

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٧٧-١٧٨/ ط دار الكتب العلمية).

طلب الحديث في هذا الزمان أفضل من سائر أنـواع التَّطـوع؛ لأجـل دروس السُّنن، وخمولها، وظهور البدع، واستعلاء أهلها»انتهى[1] .

قُلتُ: هذا في زمانه و(**العلم**)، و(**السنَّة**) ظاهران؛ فكيف بزماننا هذا ؟ .

❑❑❑

(١) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص٨٦/ ط دار إحياء السنة) .

[٥] ومن جليل آثار العلم النَّافع على حامله :

أنَّ العلم النَّافع يحثُّ مَن يطلُبُه، ويسمَعُه على العمل بما علم؛ فـ(العمل الصَّالح) ثمرة العلم النَّافع، و(العلم النَّافع) داع إلى العمل الصَّالح .

ولا علمَ نافعٌ إلَّا بالعمل الصَّالح، ولا يصلح عملٌ إلَّا بعلم نافع؛ فهما جناحان للفوز، والفلاح .

قال أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون الواعظ (ت٣٨٧) - رحمه الله تعالى- :

«**كلُّ من لم ينظر بالعلم فيما لله عليه؛ فالعلم حجَّةٌ عليه، ووبَال**»[(١)] .

وقال عامر الشعبي (ت١٠٤) - رحمه الله تعالى-، يقول: «**ليتني لم أكن علمتُ من ذا العلم شيئا**»[(٢)] .

وقال سفيان الثوري (ت١٦١) - رحمه الله تعالى- : «**ليتني لم أكتب العلم، وليتني أنجو من علمي كفافًا لا علي ولا لي!**»[(٣)] .

وقال سفيان بن عيينة (ت١٩٨) - رحمه الله تعالى- : «**العلم إن لم ينفعك ضرَّك**».

قال الإمام أبو بكر الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) شارحًا قول ابن عيينة - رحمه الله تعالى- :

«**قلت: يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به ضره بكونه حجة عليه**»انتهى[(٤)] .

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص٥٣/ ط المكتب الإسلامي) .

(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٥/ ط المكتب الإسلامي) .

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٥/ ط المكتب الإسلامي) .

(٤) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٥/ ط المكتب الإسلامي) .

وقال عبد الله بن عون (ت١٥٠) - رحمه الله تعالى- : «**وددت أني خرجت منه كفافا يعني العلم**»[(١)] .

وقال الإمام الحافظ الناقد أبو عبد الله محمد بن علي الصوري[(٢)] (ت٤٤١) - رحمه الله تعالى- :

كَم إِلَى كَم أَغـدُو إِلَى طَلَـبِ العِلـ ... ـمِ مُجِـدًّا فِي جَمـعِ ذَاكَ حَفِيَّـا
طَالِبًـا مِنـهُ كُـلَّ نَـوعٍ وَفَـنٍّ ... وَغَرِيـبٍ وَلَسـتُ أَعمَـلُ شَـيَّا
وَإِذَا كَـانَ طَالِـبُ العِلـمِ لا يَعـ ... ـمَلُ بِـالعِلمِ كَـانَ عَبـدًا شَـقِيَّا
إِنَّـمَا تَنفَـعُ العُلُـومُ لِمَـن ... كَـانَ بِهَـا عَـامِلا وَكَـانَ تَقِيَّـا

❑❑❑

قال الإمام الربَّاني ابن القيِّم - رحمه الله تعالى- :

«**إن العمل بـ(العلم) يوجب تذكُّره، وتـدبُّره، ومراعاتـه، والنظـر فيـه؛ فـإذا أهمل العمل به نسيه** .

قال بعض السلف: (**كنَّا نستعين على حفظ العلم بالعمل به**) .

وقال بعض السلف - أيضا- : (**العلم يهتف بالعمل؛ فإن أجابـه حَـلَّ، وإلَّا ارتحل**).

فالعمل به من أعظم أسباب حفظه، وثباته[(٣)]، وترك العمل به إضاعةٌ له .

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص٦١/ ط المكتب الإسلامي) .

(٢) «معجم الشيوخ الكبير» للذَّهبي (١/ ٣٨١/ ط مكتبة الصِّدِّيق) .

(٣) **فائدة عظيمة : ومن العمل بالعلم: تعليمُه لمن يستحقُّه، وهذا من أعظم أسباب زيادته، وثباته** .

فما استُدرَّ العلم، ولا استُجلِب بمثل العمل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ [الحديد٢٨]» انتهى[(١)].

❑❑❑

أَلَا وإنَّ من الأخطار العظيمة بمكانٍ:

العملُ بغير علم، والعبادةُ دون تحقيق العلم.

فصاحبها على انحراف كبير، وقد يستزلُّه الشيطان إلى سفك دماء المسلمين عياذًا بالله تعالى، كما جرى من الخوارج المارقين في أوَّل الزَّمان.

فقد كانوا على عبادات عظيمة، ولم يكونوا على دراية بالعلم النَّافع؛ فظهرت منهم البوائق المنافية لعباداتهم!.

وفي سنن الدارمي (٢٠٤) بسند ثابت في قصَّة التسبيح بالحصى- في المسجد

قال الإمام محمَّد بن أحمد السَّفَّارينيُّ (ت١١٨٨) - رحمه الله تعالى- في «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» (١/ ٤٩-٥٠/ ط مؤسسة قرطبة-مصر):

«**فالعالم كلَّما بذل علمَه للنَّاس، وأنفقَ منه تفجَّرت ينابيعُه، وازدادَ كثرةً، وقوَّةً، وظهورًا؛ فيكسب بتعليمه حفظَ ما علمه، ويحصلُ له علمُ ما لم يكن عنده.**

وربَّما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة، ولا خارجة من حيِّز الإشكال؛ فإذا تكلَّم بها، وعلَّمها اتَّضحت له، وأضاءت، وانفتح له منها علومٌ أخر، و-أيضا- فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل!؛ فكما علَّم الخلق، وهداهم من جهالتهم جازاه الله بأن علَّمه، وهداه من جهالته.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمَّاد عن النبيِّ - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- أنَّه قال في حديث طويل: «**وإنَّ الله قال لي: أنفق، أنفق عليك**» انتهى.

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٧٢/ ط دار الكتب العلمية).

جماعة، وإنكار أبي موسى، وعرضه الأمر على عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما- .

قال أبو موسى:«**يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفا أمرًا أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيرا .**

قال: فما هو؟ .

فقال: إن عشت فستراه .

قال: رأيتُ في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصَّلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى؛ فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة؛ فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة .

قال: فماذا قلت لهم؟ .

قال: ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك، أو انتظار أمرك .

قال: **أفلا أمرتهم أن يعدُّوا سيئاتهم، وضمنتَ لهم أن لا يضيع من حسناتهم.**

ثم مضى ومضينا معه؛ حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم؛ فقال:

ما هذا الذى أراكم تصنعون؟ .

قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعدُّ به التَّكبير، والتَّهليل، والتَّسبيح .

قال: **فعدُّوا سيئاتكم؛ فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء !!.**

ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم .

هؤلاء صحابة نبيكم -رضي الله عنهم- متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر .

والذي نفسي في يده إنكم لعلى ملَّة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة!.

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير .

قال: **وكم من مريد للخير لن يصيبه .**

إن رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **حدثنا: أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايم الله ما أدرى لعل أكثرهم منكم**، ثم تولَّى عنهم» .

فقال عمرو بن سلمة: «**رأينا عامة أولئك الحِلَق يطاعنونا يوم النَّهروان مع الخوارج!**» .

❑❑❑

ولله درُّ إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس (ت١٧٩) - رحمه الله تعالى-؛ حين قال :

«**إن أقوامًا ابتغوا العبادة، وأضاعُوا العلم!؛ فخرجوا على أُمَّة محمد بأسيافهم!!.**

ولو ابتَغوا العلمَ لحجزهم عن ذلك .

قال مالك: وكتب أبو موسى الاشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا؛ فكتب إليه عمر: (**أن افرض لهم من بيت المال؛ فلما كان في العام الثاني، كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك؛ فكتب إليه عمر أن امحُهم من الديوان؛ فإني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن [قبل] أن يتفقَّهوا في الدِّين؛ فيتأوَّلوه على غير تأويله**) »[1] .

❑❑❑

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١١٩-١٢٠/ ط دار الكتب العلمية).

[٦] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه :

أنَّ (العلم النَّافع) يحثُّ حامله، و يحثُّ كلَّ من يصل إليه فردًا، أو جماعةً على إخلاص العبادة لله تعالى، واجتناب الشِّرك بالله تعالى، وهذا أسمَى الغايات، وأكبر المقاصد، وأعلا المكرمات .

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة] .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل/ ٣٦] .

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء] .

والعلم النَّافع عبادةٌ لله تعالى جليلة من أعظم العبادات؛ ولهذا جاء الأمر بالإخلاص فيه في طلبه، وبثِّه، والحثِّ على ابتغاء لوجه الله تعالى فيه، وجاء التَّحذير الشَّديد من طلبه لغير الله تعالى، أو إرادة الدُّنيا به .

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى] .

قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجريُّ (ت٣٦٠) - رحمه الله تعالى- في «أخلاق العلماء» (ص٤٧) :

«فمن صفته لإرادته في طلب العلم :

أن يعلم أنَّ الله - عزَّ وجلَّ- فرضَ عليه عبادته، والعبادة لا تكون إلَّا بعلم، وعلم أنَّ العلم فريضةٌ عليه، وعلم أنَّ المؤمن لا يحسن به الجهل؛ فطلبَ العلم لينفي عن نفسه الجهل، وليعبد الله كما أمره، ليس كما تهوى نفسه.

فكان هذا مراده في السَّعي في طلب العلم، معتقـدًا للإخـلاص في سـعيه، لا يرى لنفسه الفضل في سعيه، بل يـرى لله - عـزَّ وجـلَّ- الفضـل عليـه؛ إذ وفَّقـه لطلبِ علم ما يعبده به من أداء فرائضه، واجتناب محارمه» انتهى .

❑❑❑

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» (١٩٠٥) من حديث سليمان بـن يسـار، قال:

«تفرَّق الناس عن أبي هريرة؛ فقال له ناتل أهل الشـام: أيُّهـا الشَّـيخ، حـدِّثنا حديثًا سمعته من رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- .

قال: نعم، سمعتُ رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- يقول:

«إنَّ أول النَّاس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد؛ فأتي بـه، فعرفـه نعمَـه فعرفها .

قال: فما عملت فيها ؟ .

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء؛ فقد قيل .

ثم أمر به فسحب على وجهه؛ حتى ألقي في النار .

ورجل تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن؛ فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها .

قال: فما عملت فيها ؟ .

قال: تعلمت العلم، وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن .

قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن؛ ليقال: هـو قارئ؛ فقد قيل .

ثمَّ أمر به فسحب على وجهه؛ حتى ألقي في النار .

ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله؛ فأتي به فعرفه نعمه فعرفها .

قال: فما عملت فيها ؟ .

قال: ما تركت من سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلَّا أنفقت فيها لك .

قال: كذبت، ولكنك فعلت؛ ليقال: هو جواد؛ فقد قيل .

ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار» .

قال الإمام الحافظ أبو عمر ابن عبد البرِّ (ت٤٦٣) في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٨١/ ط دار ابن الجوزي) :

«**وهذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه، وعمله وجه الله تعالى، وقد قيل في الرِّياء: إنِّه الشِّرك الأصغر، ولا يزكو معه عمل**، عصمنا الله برحمته» انتهى .

❑❑❑

[أثر هذا الحديث الجليل على أبي هريرة، ومعاوية - رضي الله عنهما-، وخوفهم الشديد ممَّا تضمَّنه من الوعيد]

وقد كان لهذا الحديث العظيم أثر بالغ على من سمعه من صحابة رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ كراوي الحديث أبي هريرة، ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهم جميعًا-؛ حتَّى إنهم ليغشى عليهم من عظيم ما يحمله هذا الحديث العظيم من الوعيد الشديد، و(تغليظ تحريم الرِّياء وشدَّة عقوبته، وعلى الحثِّ على وجوب الإخلاص في الأعمال)[1] .

وذلك فيما جاء في روايةٍ للحديث في «سنن الإمام الترمذي» (٢٣٨٣) بسند صحيح من طريق شفيٍّ الأصبحي:

«أنه دخل المدينة؛ فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس؛ فقال: من هذا؟ .

فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدِّث الناس .

فلمَّا سكت، وخلا قلت له: أسألك بحقٍّ وبحقٍّ لَمَا حدثتني حديثا سمعته من رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- عقلته، وعلمته .

فقال أبو هريرة: **أفعل؛ لأحدثنَّك حديثا حدَّثنيه رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **عقلته، وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة**[2]؛ فمكثنا قليلا، ثم أفاق .

فقال: **لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله،

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٧/ ٤٨/ ط دار الكتب العلمية) .

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ٥٨/ ط المكتبة العلمية): «أي: شهق، **وغشي عليه**» انتهى، وانظر: «تحفة الأحوذي» (٧/ ٤٦-٤٧/ ط دار الكتب العلمية) .

وسلَّم- في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق؛ فمسح وجهه، فقال: **أفعل، لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، **وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة**، ثم مال خارًّا على وجهه؛ فأسندته علي طويلا .

- ثم ذكر نحو ما تقدَّم-، ثم قال :

ثم ضرب رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- على ركبتي؛ فقال: **يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعَّر بهم النار يوم القيامة**».

❑❑❑

وقال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة بن مسلم أن شُفَيًّا، هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيافا لمعاوية فدخل عليه رجل؛ فأخبره بهذا عن أبي هريرة .

فقال معاوية: قد فُعِل بهؤلاء هذا؛ فكيف بمن بقي من الناس؟ .

ثم بكى معاوية بكاء شديدا؛ حتى ظنَّنا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ.

ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله، ورسوله مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود].

قلتُ : وفي الحديثِ من الفوائد :

١/ الحثُّ على الإخلاص لله تعالى في جميع العبادات، لاسيَّما طلب العلم النَّافع، وتعليمه، والجهاد، والصدقة لتعلُّق نظر النَّاس إلى عاملها، وثنائهم عليه،

وتعظيمهم له .

٢/ وفيه خطر الرِّياء، والسُّمعة، وأنَّهما محبطان للعمل .

٣/ وفيه اتِّهام الصَّحابة - رضوان الله عليهم- لأنفسهم، وسوء ظنِّهم بها؛ فهم مع عظيم إخلاصهم لله تعالى، وصدقهم معه في خوف من حبوط أعمالهم، وردِّها عليهم، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] .

٤/ وفيه خوف الصحابة - رضوان الله عليهم- من عذاب الله تعالى، ومن ناره، وخوفهم من أن يدخلوا في مثل وعيد هذا الحديث، وإن كانوا صحابة رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- [1] .

❑❑❑

(١) «تحفة الأحوذي» (٧/ ٤٨/ ط دار الكتب العلمية) .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

نماذج من أثر العلم النَّافع على حامليه في التَّزوُّد من الطاعة، والعبادة

إن أمثلة هذا الفصل كثيرة، وهو من أعظم ثمرات العلم النَّافع، ولو قُصد استيعابه لجاء في سفر، أو أسفار .

وأكتفي في هذا المختصر بثلاثة نماذج، وأمثلة تدلُّ على غيرها :

النَّموذج الأوَّل :

أثر العلم النَّافع في سلوك صحابة رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم-**في تعلُّمهم القرءان، وتأويله، وفقهه، والعمل به؛ فجمعوا بين الحرص على العلم النَّافع، والاجتهاد في العمل الصالح** - رضي الله عنهم، وأرضاهم- .

أخرج الحافظ الإمام ابن جرير الطبري (ت٣١٠) - رحمه الله تعالى- في «تفسيره» (١/ ٨٠/ ط الرسالة)؛ فقال :

«حدَّثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق المروزي، قال سمعتُ أبي يقول: حدَّثنا الحسين بن واقد، قال: حدَّثنا الأعمش، عن شَقيق، عن ابن مسعود، قال:

«**كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشر آياتٍ، لم يجاوزهُنَّ؛ حتى يعرف معانيهنَّ، والعملَ بهنَّ**» .

هذا إسناد صحيح[(١)] .

---

(١)وصحَّحه محدِّث مصر الشيخ أحمد بن محمد آل شاكر (ت١٣٧٧) - رحمه الله تعالى-

وأخـرج الإمـام أحمـد في «المسـند» (٥/ ٤١٠)، والحـافظ ابـن أبي شـيبة (ت٢٣٥) - رحمهـما الله تعـالى- في «المصـنَّف» (٦/ ١١٧/ ط الرشـد)، قـالا - والسِّياق لابن أبي شيبة- :

«حدَّثنا محمد بن فضيل، عـن عطـاء بـن السـائب، عـن أبي عبـد الـرحمن[1] [السلمي]، قال: **حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله** - صـلى الله عليـه، وعلى آله، وسلم- :

«**أنهم كانوا يقترئون من رسول الله** - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **عشر**-

---

في تعليقه على «تفسير الطبري»، وقال: «وهو موقوف على ابن مسعود، ولكنَّه مرفـوع معنـى؛ لأنَّ ابن مسعود إنَّما تعلم القرآن من رسول الله - صلى الله عليه،وعلى آله، وسلَّم-؛ فهو يحكي ما كان في ذلك العهد النبوي المنير» انتهى كلامه .

(١) أبو عبد الرحمن السلمي، هو: مقرئ الكوفة، الإمام، العلم، عبد الله بن حبيـب بـن رُبيِّعة الكوفي (ت٧٤)، وهو من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- انتهت إليه القراءة تجويدًا، وضبطًا، أخذ القراءة عرضًا على عـثمان بـن عفـان، وعـلي بـن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب - رض الله عنهم-، وتخرَّج عليـه أُمم فيهم كثير من أهل العلم، وكان لا يأخذ على تعليم القرآن أجرًا، ويرُدُّ الهدايا فيه، وجلس في جامع الكوفة يعلِّم القرآن أربعين سنة كما قال أبو إسحاق السبيعي؛ حمله على ذلك حديث سمعه من أمير المؤمنين عثمان وهو حديث:«**خيركممَن تعلَّم القرآن وعلَّمه**»، قـال سـعد بـن عبيدة : وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان؛ حتى كان الحجَّـاج، قـال: (**وذاك الَّـذي أقعـدني مقعدي هذا**)! أخرجه البخاري (٥٠٢٧)،يريد أن حـديث عـثمان هـو الـذي أقعـده لتعلـيم القرآن، **وهو من أثر العلم النَّافع على أبي عبد الرحمن السلمي** -رحمه الله تعالى- .

وانظر: «سـير أعـلام النـبلاء»(٤/ ٢٦٧/ ط الرِّسـالة)، و«معرفـة القـراء الكبـار عـلى الطبقـات والأعصـار»(ص٢٦-٣٠/ ط دار الكتـب العلميـة)، و«غايـة النهايـة في طبقـات القراء» (١/ ٤١٣-٤١٤/ ط مكتبة ابن تيمية) لابن الجزري، وغيرها .

آيات، ولا يأخذون في العشر الأخرى؛ حتى يعلموا ما في هذه من العمل والعلم؛ فإنَّا علمنا العمل، والعلم»[(١)] .

«[**وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم؛ليشربونه شرب الماء، لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز هاهنا**- ووضع يده على الحلق-] »[(٢)] .

❑❑❑

---

(١) طرق هذا الأثر الجليل تدور على (عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي)، وعطاء صدوق اختلط، ورواية الكبار عنه كالثوري، وطبقته قبل الاختلاط، وأمَّا رواية محمد بن فضيل، وجرير بن عبد الحميد، وغيرهم؛ فبعد الاختلاط، لكنَّهذا الأثر ثابت من رواية : (سفيان الثوري)، و(همام بن يحيى العوذي) كما جاء في «شرح مشكل الآثار» (رقم١٤٥١و١٤٥٢) عنهما بإسنادَين حسنَين، وكذا رواه عن عطاء - أيضًا- (حمادُ بن زيد) عند ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٢١٢/ ط دار الكتب العلمية) بإسناد صحيح، وهؤلاء رووا عن عطاء بن السَّائب قبل اختلاطه؛ **فالأثرُ ثابتٌ**، والحمد لله .

قال الإمام الدارقطني في «العلل»(٣/ ٦٠/ س٢٨٤): «ورواه صالح بن عبد الله التِّرمذي عن يحيى بن كثير أبي النضر عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن قال:(**حدَّثني الَّذين كانوا يقرئونا عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب**)؛ فسمَّى هؤلاء الثَّلاثة، ولم يسمِّهم سواه، والأول أشبه بالصواب» انتهى .

قلتُ: وبهذا اللفظ الأخير أوردَ هذا الأثرَ شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيِّم في غير موضع، والتَّسمية غير محفوظة في الأثر، وإن كان المعنى يقتضيها، والله أعلم .

وانظر: «الحموية الكبرى» (ص٢٩٣)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٠)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٧/ ٥٤٤)، وغيرها .

(٢) زيادة إسنادها صحيح، أخرجها ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٢١٢/ ط دار الكتب العلمية) (٧/ ٤٨/ ط دار الكتب العلمية)، والظَّاهر أنَّها من قول أبي عبد الرحمن السلمي- رحمه الله تعالى- .

قلت :

١/ فتدبَّر ما كان عليه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- من الحرص على (العلم النَّافع)، وتطلُّبه من معينه .

❑❑❑

٢/ وتأمَّل حرص رسول - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- على تعليم أصحابه، وحرص صحابة رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- على تعليم التَّابعين، وهلُمَّ جرًّا نزولاً إلى عصرك؛ فأصل العلم التَّلقِّي مع حرص التِّلميذ على التعلُّم، وحرص المعلِّم على التَّعليم .

❑❑❑

٣/ وتأمَّل أثر تعلُّم القرءان، وحفظه، والتفقُّه في علومه، ومعانيه - وهو (العلم النَّافع)- على صحابة رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم-، ما أورثهم حبَّ العمل بما علموه، قبل أن يستزيدوا علما جديدًا .

فالعلم النَّافع دافع لهم إلى العمل الصَّالح، والعمل الصَّالح ثمرة العلم النَّافع، ومثبِّت له، وفاتح له .

ولهذا صاروا نجومَ الأُمَّة، وخيرَها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران/١١٠] .

❑❑❑

٤/ وفيه أن العلم النَّافع يؤخذ شيئا فشيئا، وهذا سبيلُ ثباته، والإجادة، والبراعة فيه، وضدُّ ذلك من رامه جملة واحدة؛ فإنَّه يفوته جملة .

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان] .

وفي مثل هذا صدق القائل :

مَـــن لي بمِثـــلِ سَـــيرِكِ المَـــدَلّلِ
تَمْشِيـــــرُوَيـــــدًا وتَجِـــــي في الأَوَّلِ

❑❑❑

٥/ وفيه : أنَّ الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم- أعلم النَّاس بمعاني القرآن، وأفهم الأمَّة لمقاصده؛ ففهمهم حجَّة معتبرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- :

«**فإنَّ أصحاب رسول الله** - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **تلقَّوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن، لفظه ومعناه جميعا**[(١)]»، كما قال أبو عبد الرحمن السُّلمي، وهو الذي روى عن عثمان- رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- أنه قال: «**خيركم من تعلَّم القرآن، وعلَّمه**»، كما رواه البخاري في «صحيحه»[(٢)]، **وكان يقرئ القرآن أربعين سنة**[(٣)]» انتهى[(٤)] .

وقال الإمام الربَّاني أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) -رحمه الله تعالى-:

---

(١) وقال تلميذه الإمام ابن القيِّم - رحمه الله تعالى- : «**فالصحابة أخذوا عن رسول الله** - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **ألفاظ القرآن ومعانيه، بل كانت عنايتهم بأخذ المعاني من عنايتهم بالألفاظ، يأخذون المعاني أوَّلا، ثم يأخذون الألفاظ؛ ليضبطوا بها المعاني؛ حتى لا تشذَّ عنهم** .. فإذا كان الصحابة تلقَّوا عن نبيهم معاني القرآن، كما تلقَّوا عنه ألفاظه، لم يحتاجوا بعد ذلك إلى لغة أحد؛ فنقل معاني القرآن عنهم، كنقل ألفاظه سواء ..» انتهى من «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (ص٥٣٥/ ط دار الحديث القاهرة) .

(٢) برقم (٥٠٢٧) .

(٣) انظر ما تقدَّم في ترجمة أبي عبد الرحمن السلمي - رحمه الله تعالى- .

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٤٠٢)، و«الفتاوى الكبرى» (٤/ ٤٢٣/ ط دار الكتب العلمية) .

«ونحن نشهد أنَّ الله قد بيَّن غاية البيان، الَّـذي لا بيـانَ فوقـه، وبلَّـغ رسـولُه - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم - البلاغَ المبين؛ فبلَّغ المعـاني كـما بلـغ الألفـاظ، والصحابة بلَّغوا عنه الأمرين جميعًا، وكان تبليغُه للمعَاني أهمَّ من تبليغه للألفَـاظ، ولهذا اشترك الصَّحابة في فهمها، وأمَّا حفظُ القرآن؛ فكان في بعضهم»[1] .

❑❑❑

٦/ وفيه: بيَان طريقة سلف الأُمَّة في عنايتهم بتفهُّم القرآن، وإعراضـهم عـمَّا يشغل عن ذلك، ويحجُب عنه، كالنَّغم، والتَّطريب، والمبالغة في أحكام التَّجويـد، وغير ذلك ممَّا يحجُب عن فهم القران، وإدراك مراد الله تعالى من كلامه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- :

«فرفع الدَّرجات، والأقدار على قدر معاملة القلوب بـالعلم، والإيـمان؛فكـم ممَّن يختم القرآن في اليوم مرَّة، أو مرَّتين، وآخر لا ينام اللَّيل، وآخر لا يُفطر .

وغيرُهم أقلُّ عبادةًمنهم، وأرفعُ قدرًا في قلوب الأمَّة.

فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق يختمون القـرآن في الشَّـهر تسـعين مرة!، وحالُ ابن المسيَّب، وابن سيرين، والحسن، وغيرِهم في القلوب أرفعُ .

إلى أن قال - رحمه الله تعالى- :

وأمَّا في (باب فهم القرآن)؛ فهو -أي: صاحب العلم، والإيمان- دائمُ التَّفكُّر في معانيه، والتدبُّر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن، وحِكَمه عن غيره مـن كـلام الناس..، وهمَّتُه عاكفةٌ على مرادِ ربِّه من كلامِه .

---

(١)«مختصر الصـواعق المرسـلة عـلى الجهميـة والمعطلـة»(ص٣٩٠/ ط دار الحـديث- القاهرة)، وانظر نظير هذا التقرير في: «جـواب الاعتراضـات المصريـة عـلى الفُتيـا الحمويـة» (ص١١-١٢/ ط عالم الفوائد) .

ولا يجعل همَّتَه فيما حُجِبَ به أكثرُ النَّاس من العُلُوم عن حقَائق القُرآن .

[١] إمَّـا بالوسوسـة في خـروج حروفـه، وترقِيقهـا، وتفخيمِهَـا، وإمالَتهـا، والنُّطق بالمدِّ الطَّويل، والقَصير، والمتوسِّط، وغير ذلك؛ **فإن هـذا حائـلٌ للقلـوب قاطعٌ لها عن فهم مراد الربِّ من كلامه**[١] .

[٢] وكـذلك شُـغل النُّطـق بـ ءَأَنذَرْتَهُمْ [البقـرة/٦]، وضـمِّ المـيم مـن عَلَيْهِمْ [الفاتحة/٧]، ووصلها بالواو، وكسر الهاء، أو ضمها، ونحو ذلك[٢] .

[٣] وكذلك مراعاة النَّغَم، وتَحسينُ الصَّوت[٣] .

[٤] وكذلك تتبُّع وجوه الإعراب، واستخراج التَّأويلات المسـتكرهة، الَّتـي هي بالألغاز، والأحاجي أشبه منها بالبيان[٤] .

[٥] وكذلك صرف الذِّهن إلى حكاية أقوال النَّاس، ونتائج أفكَارهم[٥] .

[٦] وكذلك تأويل القرآن على قول مَن قلَّد دينَه، أو مذهبـه؛ فهـو يتعسَّـفُ بكلِّ طريق؛ حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه، وتقويةً لقول إمامه[٦] .

وكلٌّ محجوبونَ بما لديهم عن فَهم مراد الله من كلامِـه في كثـير مـن ذلـك، أو

---

(١) هذا أحد الحُجُب الغَليظة عن فهم كلام الله تعالى، وتدبُّره .

(٢) وهذا حِجابٌ آخر عن فهم كلام الله تعالى، وتدبُّره، وهو الغلوُّ في علم القراءات.

(٣) وهذا حِجابٌ ثالث عن فهـم كـلام الله تعـالى، وتـدبُّره، وهـو التَّكلُّـف في الـنَّغَم، والمقامات الموسيقيَّة .

(٤) وهذا حِجابٌ رابعٌ عن فهم كلام الله تعالى، وتدبُّره، وهو التَّنطُّع في علم الإعراب.

(٥) وهذا حِجابٌ خامسٌ عن فهـم كـلام الله تعـالى، وتـدبُّره، وهـو التَّعلُّـق بـالكَلام، وأصحابه .

(٦) وهذا حِجابٌ سادسٌ عن فهم كلام الله تعالى، وتدبُّره، وهو التَّقليد .

أكثره» انتهى[1] .

❑❑❑

٧/ قال الإمام ابن عبد البرِّ (ت٤٦٣) - رحمه الله تعالى- :

«طَلب العلم درجات، ومناقل، ورتبٌ لا ينبغي تعدِّيها، ومَن تعدَّاها جملة؛ فقد تعدَّى سبيل السَّلف - رحمهم الله-[2] ، ومن تعدَّى سبيلهم عامدًا ضلَّ، ومَن تعدَّاه مجتهدا زلَّ .

فأوَّل العلم حفظ كتاب الله عز وجل[3] ، وتفهُّمه، وكلُّ ما يُعين على فهمه؛ فواجب طلبُه معه[4] .

ولا أقول: إنَّ حفظه كلَّه فرض، ولكنِّي أقول: إنَّ ذلك شرط لازم على من

---

(١)«مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٨-٤٩و٥٠-٥١) .

(٢) تدبَّر هذا الموضع، وأكثر التَّفكُّر فيه، واسلك سبيل سلفك في طلب العلم النَّافع .

(٣) قال الحافظ أبو بكر الخطيب (ت٤٦٣) - رحمه الله تعالى-في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٠٦/ ت الطحان): «**ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله عز وجل؛ إذ كان أجل العلوم، وأولاها بالسبق، والتَّقديم**» انتهى .

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى-:«**والمطلوب من القرآن: هو فهم معانيه، والعمل به؛ فإنَّ لم تكن هذه همَّة حافظه، لم يكن من أهل العلم، والدِّين،والله** سبحانه أعلم»انتهى من «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٥)، وقال الإمام ابن القيِّم - رحمه الله تعالى- : «وتعلُّم القرآن، وتعليمُه، يتناول تعلُّم حروفِه، وتعليمها، وتعلُّم معانيه، وتعليمها، وهو أشرف قسمي تعلُّمه، وتعليمه؛ **فإن المعنى هو المقصود**،واللَّفظ وسيلةٌ إليه؛ فتعلُّم المعنى، وتعليمه تعلُّمُ الغاية، وتعليمُها، وتعلُّم اللَّفظ المجرَّد، وتعليمه تعلُّم الوسائل، وتعليمُها، **وبينهما كما بين الغايَات، والوسائل**» انتهى من «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٤/ ط دار الكتب العلمية).

أحبَّ أن يكون عالما فقيهًا ناصبًا نفسه للعلم[1]، ليس من باب الفرض[2]..

[و] **القرآن أصل العلم**؛ فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب كان ذلك له عونًا كبيرًا على مراده منه، ومن سنن رسول الله - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم-، ثم ينظر في ناسخ القرآن، ومنسوخه، وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء، واتِّفاقهم في ذلك، وهو أمر قريب على من قرَّبه الله عز وجل عليه، ثم ينظر في السنن المأثورة الثَّابتة عن رسول الله - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم- فبها يصل الطالب إلى مراد الله عز وجل في كتابه، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا، وفي سير رسول الله - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم- تنبيه على كثير من النَّاسخ والمنسوخ في السُّنن» انتهى المراد[3].

❑❑❑

٨/ **وفيه بيان أن أصل ضلال الخوارج**، وغيرهم هو من تأوُّلهم للقرآن على غير فقه لمعناه، بل خوضًا فيه بغير علم به، ولا بصيرة فيه، ولا فهم سلفيٍّ؛ وقد وصفهم رسول الله - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم- بالوصف البليغ المطابق للحال؛ فقال:«**قوم يقرءون القرآن بألسنتهم، لا يعدو تراقيهم**[4]، **يمرقون من**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٤).

(٢) وقد ثبت أن الَّذين جمعوا القرآن من الصَّحابة جماعة كثيرةٌ من المهاجرين، والأنصار، وعلى رأسهم عثمان - رضي الله عنه-، وليس في الخلفاء الراشدين من جمعه غيره، وكانوا جميعًا أعلم الناس بفقه كتاب الله تعالى، وتأويله - رضي الله عنهم جميعًا-، وانظر: «فضائل القرآن» لابن كثير (ص٥٤/ ط مكتبة ابن تيمية)، و«البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/ ٢٤١-٢٤٣/ ط دار إحياء الكتب العربية)، وغيرها.

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٢٩-١١٣٠).

(٤) قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ١٨٧): «التَّرَاقي: جمع

الدِّين، كما يمرق السَّهم من الرمية»[1]، وفي الصَّحيحين حديث عمر - رضي الله عنه-: «**لا يجاوز حناجرهم**» .

وصدَق ابن القيِّم؛ إذ قال في «النُّونيَّة»:

مَـن لي بشِـبهِ خَـوَارجٍ قَـد كَفَّـرُوا ... بالـذَّنبِ تَـأويلاً بـلا إِحسَـانِ

ولَـهُم نُصُوصٌ قَصَّـرُوا في فَهمِهَـا ... فَـأَتَوا مِـن التَّقصِـير في العِرفَـانِ

وقد تقدَّم عن مالك أنه قال: كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا؛ فكتب إليه عمر: (**أن افرض لهم من بيت المال؛ فلمَّا كان في العام الثاني، كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك؛ فكتب إليه عمر أن امحُهم من الديوان؛ فإني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن [قبل] أن يتفقَّهوا في الدِّين؛ فيتأوَّلوه على غير تأويله**) »[2] .

ولهذا قال أبو عبد الرحمن السُّلمي - رحمه الله تعالى- :

ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر، والعاتق، وهما ترقوتان من الجانبين، ووزنها فعلوة بالفتح، والمعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله، ولا يقبلها، فكأنها لم تتجاوز حلوقهم، وقيل: المعنى أنهم لا يعملون بالقرآن، ولا يثابون على قراءته، فلا يحصل لهم غير القراءة» انتهى، وانظر: «شرح مسلم للنووي»(٧/ ١٥٩/ ط دار إحياء التراث) .

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ٢٩٣) : «قلت: وهو مثل قوله فيهم - أيضا- (**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**) أي: ينطقون بالشهادتين، ولا يعرفونها بقلوبهم» انتهى .

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٩٣٤)، ومسلم في «صحيحه» (١٠٦٨) من حديث سهل بن حُنَيف - رضي الله عنه- .

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١١٩-١٢٠/ ط دار الكتب العلمية).

«**وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم؛ليشربونه شرب الماء، لا يجاوز تراقيهم، بـل لا يجاوز هاهنا**- ووضع يده على الحلق-» .

❑❑❑

النَّموذج الثَّاني :

أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل أبي هريرة - رضي الله عنه-، **واجتهاده في العبادة .**

فقد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث أبي عثمان النَّهديِّ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، قال: «**أوصاني خليلي** - صلَّى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم- **بثلاثٍلا أدعهن حتَّى أموت :**

«**صيام ثلاثة أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ، وركعتي الضُّحى، وأن أوتر قبل أن أنام**» .

قلتُ :

وقد عمل الصَّحابيُّ الجليل أبو هريرة - رضي الله عنه- بهذه الوصيَّة في نفسه، وأهله، وحافظ عليها :

فقد أخرج البخاريُّ في «صحيحه» (٥٤٤١) من طريق أبي عثمان النَّهديِّ - أيضًا-، واسمه عبد الرَّحمن بن مُلٍّ، قال: **تضيَّفت**[1] **أبا هريرة، سبعًا؛ فكان هو وامرأته، وخادمه، يعتقبون اللَّيل أثلاثًا: يصلِّي هذا، ثمَّ يوقظ هذا .**

وعند عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (٣/ ٧٤) : عن ابن جريجٍ قال: أخبرني عطاءٌ: «**أنَّ أبا هريرة قال: ثلاثٌ لا أدعهنَّ؛ حتَّى ألقى أبا القاسم**» .

❑❑❑

(١) أي: نزلت عنده ضيفًا .

النَّموذج الثَّالث :

أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر - رضي الله عنه-، **واجتهاده في العبادة .**

أخرج البخاري في «صحيحه» (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩) من حديث الزهري، عن سالم، عن ابن عمر، قال :

«**كان الرجل في حياة رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، **إذا رأى رؤيا، قصَّها على رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ **فتمنَّيت أن أرى رؤيا أقصُّها على النبي** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-.

قال: **وكنت غلاما شابا عزبا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، **فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني، فذهبا بي إلى النار؛ فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم؛ فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار .**

قال: فلقيهما ملك؛ فقال لي: لم ترع .

فقصصتها على حفصة، فقصَّتها حفصة، على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**» .

قال ابنه سالم: فكان عبد الله، بعد ذلك، لا ينام من الليل إلَّا قليلا .

❑❑❑

وأخرج الإمام الطَّبري (ت٣١٠) في «تَفسيره» (٦/ ٢٦٦) بسنده .

قال الوليد بن مُسلم : سَألت عَبدَ الرَّحمن بن يَزيد بن جابر عن قول الله

: وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عِمرَان] ؟ .

فقال: حدَّثني سليمان بن موسى، قال حدَّثني نافعٌ :

أَنَّ ابنَ عُمَرَ كَانَ يُحيِي اللَّيلَ صَلَاةً؛ فَيَقُولُ: يَا نَافِعُ: أَسحَرنَا؟ .

فَيَقُولُ: لَا، فَيُعَاوِدُ الصَّلَاةَ؛ فَإِذَا قُلتُ: نَعَم، قَعَدَ يَستَغفِرُ اللهَ، وَيَدعُو؛ حَتَّى يُصبِحَ»[1] .

قلتُ :

فتدبَّر أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر - رضي الله عنه- وكيف كان قبلُ، وإلى أيِّ حالٍ صار - بعد توفيق الله تعالى له إلى أخذ العلم النَّافع- قوَّاما للَّيل، مستغفرًا بالأسحار ؟ .

❑❑❑

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه الطَّبري في «تَفسيره» (٦/ ٢٦٦)، وابن المنذِرِ في «تَفسيره» (١/ ١٤٥)، وابن أَبي حَاتم في «تَفسيره» (٢/ ٦١٦) من طرق إِلى الوليد بن مُسلم به .
وفي كتابي «صفة قيام رسول الله ﷺ وتهجده بالليل - كأنك تراها-» بيان لهذا الموضع .

الفَصْلُ الثَّانِي

نماذج من أثر العلم على حامليه في أوقاتِ الفتن العظام

تقدَّم أن آثار (العلم النَّافع) كثيرة جدًّا على طالبه، وحامله في أبـواب الخـير، والطاعات، من صلاة، وصيام، وحج، وجهاد، وغير ذلك من أبـواب العبـادات كما تقدَّم .

وفي هذا الفصل النَّافع - إن شاء الله تعـالى- يجـري التَّـذكير بمبحـث مهـمٍّ، وجانب جليل من جوانب العلم .

وهو جانب أثر العلم النَّافع في النَّجاة من الفتن المدلهمَّة، والنَّوزال الملمَّة .

وهو باب عظيم جدًّا، نحن في أزماننا هذه في أشدِّ الحاجة إلى فقهه، والتَّبصُّر بسبيله، والتفكُّر فيه .

فإنَّ من لم ينفعه علمه وقتَ المحن، زلَّت به قدمه إلى حضيض الفتن، وجرَّت عليه صنوف البلاء في دنياه، وآخرته، وقد يتعدَّى ضَرُّه؛ فيُضـلُّ خلقًـا كثـيرًا مـن المؤمنين؛ ويتحمَّل أوزارًا عظيمة - عياذًا بالله-، والمعصوم من عصمه الله تعالى .

ومثل هؤلاء قد يُحرمون مـن حـوض النبـي - صـلَّى الله، عليـه، وعـلى آلـه، وسـلَّم-، وعنـه يـذادون عيـاذًا بـالله تعـالى؛ لتنكُّـبهم عـن صراط الله المسـتقيم، وخروجهم عن هدي رسـوله الكـريم - صـلَّى الله، عليـه، وعـلى آلـه، وسـلَّم-، واتِّباعهم غير سبيل المؤمنين .

ونبي الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- على حوضه ينتظر من يرد عليه من أمَّته؛ قال - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-:

«**فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي!؛ فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى**»، قال ابن أبي مليكة: «اللَّهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن»[1].

❑❑❑

ومن الصور المشرقة، والأحوال المشرِّفة لسلفنا في هذا الباب :

الصورة المشرقة الأولى :

أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أبي بكرة نفيع بن الحارث - رضي الله عنه- .

١/ أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري (ت٢٥٦) - رحمه الله تعالى- في «صحيحه» (٤٤٢٥) من حديث الحسن، عن أبي بكرة، قال :

«**لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **أيَّام الجمل، بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل؛ فأقاتل معهم** .

لما بلغ رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **أنَّ أهل فارس، قد ملكوا عليهم بنت كسرى، قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»** .

وفي هذا الحديث :

انتفاع أبي بكرة - رضي الله عنه- بهذا العلم النَّافع، الذي سمعه من رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، فكفَّ عن المشاركة في موقعة الجمل، الَّتي كانت بين عسكر عليٍّ - رضي الله عنه-، وبين عائشة - رضي الله عنها-، ومن معها، حول جملها .

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٠٤٨) من حديث أسماء - رضي الله عنها-.

وقد ندمت أم المؤمنين على هذا، وندم أمير المؤمنين عليٌّ على الاقتتال - رضي الله عنهم جميعا، وأرضاهم، وأعلا منازلهم في الجنَّة- .

❑❑❑

٢/ أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري (ت٢٥٦) - رحمه الله تعالى- في «صحيحه» (٧٠٨٣) أنَّ الحسن البصري[(١)]، قال: خرجت بسلاحي ليالي الفتنة؛ فاستقبلني أبو بكرة، فقال: أين تريد؟ .

قلت: أريد نصرة ابن عم رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- ؟ .

قال: قال رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار**» .

قيل: فهذا القاتل، فما بال المقتول؟ .

قال: «إنه أراد قتل صاحبه» .

❑❑❑

٣/ أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري (ت٢٥٦) - رحمه الله تعالى- في «صحيحه» (٧٠٧٨) من حديث ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبي بكرة :

أن رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- خطب الناس؛ فقال: «**ألا تدرون أي يوم هذا**» ؟ .

قالوا: الله ورسوله أعلم .

قال: حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه؛ فقال: «**أليس بيوم النحر**» .

قلنا: بلى يا رسول الله .

---

(١) ساق البخاري خلافا في الإسناد هنا .

قال: «**أيُّ بلد هذا، أليست بالبلدة الحرام**» ؟ .

قلنا: بلى يا رسول الله .

قال: «**فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، وأبشاركم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت**» .

قلنا: نعم، قال: «**اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه ربَّ مبلغ يبلغه لمن هو أوعى له**» [فكان كذلك][1] .

قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض**» .

فلما كان يوم حرق ابن الحضرمي[2]، حين حرقه جارية بن قدامة، قال: أشرفوا على أبي بكرة، فقالوا: هذا أبو بكرة يراك[3]، قال عبد الرحمن: فحدثتني أمي عن أبي بكرة، أنه قال: **لو دخلوا علي ما بهشت بقصبة**[4] .

---

(١) ما بين المعقوفتين من قول ابن سيرين .

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن الحضرمي، وكان معاوية - رضي الله عنه- أرسل ابن الحضرمي يستنصر أهل البصرة على علي - رضي الله عنهم-؛ فوجه علي - رضي الله عنه- جارية بن قدامة؛ فحصره فتحصَّن ابن الحضرمي في دار؛ فأحرقها عليه، وكان هذا سنة ثمان وثلاثين، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٨) .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٩) : «فالذي يظهر أن جارية بن قدامة بعد أن غلب، وحرَّق ابن الحضرمي، ومن معه، استنفر الناس بأمر علي؛ فكان من رأي أبي بكرة ترك القتال في الفتنة كرأي جماعة من الصحابة؛ **فدلَّ بعضُ الناس على أبي بكرة؛ ليُلزِموه الخروج إلى القتال؛ فأجابهم بما قال**» انتهى .

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٩) : «والمعنى: **ما دافعتهم**، يقال: بهش بعض القوم إلى بعض إذا تراموا للقتال؛ **فكأنه قال ما مددت يدي إلى قصبة، ولا تناولتها لأدافع بها عني**، .. وهذا الذي قاله أبو بكرة يوافق ما وقع عند أحمد من حديث ابن

وهذا الحديث صريح في أن (**الأصل أن دماء المسلمين، وأموالهم، وأعراضهم محرَّمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلَّا بإذن الله، ورسوله**)[1] .

وأن قتال الفتنة لا يرفع هذا الأصل العظيم .

❑❑❑

الصورة المشرقة الثانية :

أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر - رضي الله عنه- **في وفائه ببيعة يزيد بن معاوية، وكان قد بايعه على ما في يزيد من المخالفات .**

وتشديد عبد الله بن عمر - رضي الله عنه- **على أولاده، ومن هم تحت رعيَّته في الوفاء ببيعة يزيد، والحذر من نزع اليد من الطاعة، والخروج عن الجماعة .**

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري (ت٢٥٦) - رحمه الله تعالى- في «صحيحه» (٧١١١)؛ فقال :

مسعود في ذكر الفتنة، قلت يا رسول الله: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟، قال: (**كف يدك، ولسانك، وادخل دارك**)، قلت يا رسول الله: أرأيت إن دخل رجل علي داري؟، قال: (**فادخل بيتك**)، قال قلت: أفرأيت إن دخل علي بيتي؟، قال: (**فادخل مسجدك، وقبض بيمينه على الكوع، وقل ربي الله حتى تموت على ذلك**)، وعند الطبراني من حديث جندب: (**ادخلوا بيوتكم، وأخملوا ذكركم**)، قال: أرأيت إن دخل على أحدنا بيته؟، قال: (**ليمسك بيده، وليكن عبد الله المقتول، لا القاتل**)، ولأحمد، وأبي يعلى من حديث خرشة بن الحر: (**فمن أتت عليه؛ فليمش بسيفه إلى صفاة؛ فليضربه بها حتى ينكسر، ثم ليضطجع لها حتى تنجلي**)، وفي حديث أبي بكرة عند مسلم قال رجل يا رسول الله: أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفَّين، فجاء سهم، أو ضربني رجل بسيف، قال: (**يبوء بإثمه، وإثمك**) الحديثَ، **والأحاديث في هذا المعنى كثيرة**» انتهى.

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٨٣) .

«حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع قال :

لَمَّا خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر، حشمه، وولده؛ فقال :

إني سمعت النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- يقول: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**»، وإنَّا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله، ورسوله، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله، ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلَّا كانت الفيصل بيني وبينه .

بوَّب البخاري في «صحيحه» على هذا الحديث؛ فقال: (**باب إذا قال عند قوم شيئا، ثم خرج فقال بخلافه**) .

قلتُ: وتدبَّر أيُّها الموفَّق هذا الفقه العميق السديد، والنَّظر الدقيق البعيد من هذا العلم من أعلام الصَّحابة الكرام - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين-، وفيه من المعالم، والفرائد :

١/ الصَّبر على طاعة ولاة الأمور، والوفاء لهم بالبيعة، وإن كان فيهم بعض المخالفات .

٢/ عدم التذرُّع بالمخالفات التي عند ولاة الأمور لخلع البيعة، وإن وُجد من هو أصلحُ منهم .

٣/ أنَّ أصول الشَّرع المطهَّر دلَّت على أنَّ فتح باب الخروج على الأئمَّة، لا يجرُّ على الأمَّة إلَّا ما هو شرٌّ، وبلاء مستطير، وفساد خاصٌّ، وعامٌّ، لا يعلمه إلَّا الله تعالى، ومن ذلك: سفك الدِّماء المعصومة، وزيادة المنكرات والشرور، والمعاصي، وظهور الظُّلم، وافتراق الكلمة، وضعفُ الأمَّة، وذهاب قوَّتها، وتسلُّط أعدائها في أضرار كثيرة جدًّا .

(فلهذا نهى النبي - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- عن قتال الأئمَّة إذا كان فيهم ظلم؛ لأنَّ قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم)[1] .

❑❑❑

الصورة المشرقة الثالثة :

أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أسامة بن زيد - رضي الله عنه- .

وهو من جميل أثر العلم في فقه النصح لولاة الأمر، والأئمَّة عند وجود المخالفات لاسيَّما وقت الفتن، وشدَّة خوف أهل العلم من الرِّياء في ذلك؛ ولهذا يتكاتمون نصائحهم للولاة .

فقد جاء في «صحيح البخاري» (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث الأعمش، عن أبي وائل، قال: «قيل لأسامة: لو أتيت فلانا[2]؛ فكلمته ! .

قال: إنَّكم لتَرون أني لا أكلِّمه إلا أُسمعكم، إنِّي أكلِّمُه في السرِّ دون أن أفتح بابًا، لا أكون أول من فتحه[3] .

ولا أقول لرجل أن كان عليَّ أميرا إنه خير الناس، بعد شيء سمعته من رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- .

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٤/ ت رشاد سالم) .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٥١) : «ووقع اسم المشار إليه عند مسلم من رواية أبي معاوية عن الأعمش عن شقيق عن أسامة قيل له: (ألا تدخل على عثمان فتكلمه)، ولأحمد عن يعلى بن عبيد عن الأعمش: (ألا تكلم عثمان)» انتهى .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٥١) : «قوله: (قد كلمته ما دون أن أفتح بابا) أي: كلَّمته فيما أشرتم إليه؛ لكن على سبيل المصلحة، والأدب في السرِّ بغير أن يكون في كلامي ما يثير فتنة، أو نحوها» انتهى .

قالوا: وما سمعته ؟ .

يقول: قال: سمعته يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النـار، فتنـدلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النـار عليـه؛ فيقولـون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكـر؟ قـال: كنـت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**» .

فتدبَّر عبدَ الله أثر العلم النَّافع على حِبِّ رسول الله أسامة بن زيد - رضي الله عنه- في :

١/ إسراره النصح لولاة الأمر فيما يقع منهم مـن المخالفـات، وأن هـذا هـو سبيل المصلحة في النَّصيحة، لا التَّشهير، وإيغال صدور الرعيَّة .

٢/ وتدبَّر عدم تباهيه بذلك، أو طلب المِدحة به .

٣/ وتدبَّر بعده عن المبالغة، والإسراف في الثناء على الولاة .

٤/ وتأمَّل خوفه مـن اخـتلاف قولـه وعملـه في النَّصـيحة للنَّـاس، لاسـيَّما الوُّلاة، أو اختلاف كلامه في السِّرِّ والإعلان، وفي المجالس الخاصَّة، والعامَّة .

٥/ وتأمَّل - أيضًا- أمره للرعيَّة بحسن الظنِّ بأهل العلم، والحذر من سـوء الظنِّ بهم، والله أعلم .

❑❑❑

الباب الثاني

من حميد أثر العلم النَّافع على المجتمعات

وفيه فصول خمسة :

الفصل الأول: أثر العلم النَّافع على الفرد والمجتمع في توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، واجتناب البدع .

الفصل الثاني: أثر العلم النَّافع في توحيد كلمة المسلمين .

الفصل الثالث: ومن آثار العلم النَّافع في حفظ مجتمعات المسلمين : ما يكون من أثر العلم النَّافع في إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الناس، والتفقُّه في فقهها، والعمل فيها على مقتضى الشريعة .

الفصل الرابع: أثر العلم النَّافع في ثبات المجتمعات، وحفظها، ونمائها، وازدهارها .

الفصل الخامس: أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة في أمنها، وسلامتها من الفتن .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أثر العلم النَّافع على الفرد والمجتمع في توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، واتِّباع رسوله،واجتناب البدع

إنَّ الله جل وعلا لم يخلق الخلق سدًى، وهملا، بل خلقهم لغاية عظمى، وحكمة سامية كبرى، ألَا وهي عبادته جل وعلا حقَّ العبادة .

وهذا الباب شرطه الذي لا يتحقَّق حقًا، وصدقًا إلَّا به هو :

(العلم بمن يعبد)، وهو الله تبارك تعالى، و**(العلم بما يعبد الله تعالى به)**، وهذه هي الغاية من تحقيق العلم النَّافع .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى– :

«**العبادة لا بد فيها من القصد، والقصد لا يصحُّ إلا بعد العلم بالمقصود المعبود، وهذا صحيح؛ فلا بد من معرفة المعبود، وما يعبد به .**

فالضالُّون من المشركين، والنصارى، وأشباههم لهم عبادات، وزهادات، لكن لغير الله، أو بغير أمر الله .

وإنَّما القصد، والإرادة النَّافعة هو **(إرادة عبادة الله وحده)**، وهو: **(إنَّما يعبد بما شرع لا بالبدع)**، وعلى هذين الأصلين يدور دين الإسلام[1] :

---

(١) ووصفهما في غير موضع بأنهما (أصلان عظيمان)، وقال أيضًا : «وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن (لا إله إلا الله)، و(أن محمدا رسول الله)، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك/ ٢]، قال الفضيل بن عياض: (أخلصه، وأصوبه)، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه، وأصوبه؟، قال: **(إن العمل إذا كان خالصا، ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان**

على (**أن يعبد الله وحده**)، و(**أن يعبد بما شرع**)، ولا يعبد بالبدع» انتهى[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة]، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى/ ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى/ ٢١].

وجاء في «صحيح البخاري» (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث منصور، عن أبي وائل، عن أبي موسى، قال: «جاء رجل إلى النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟؛ فإن أحدنا يقاتل غضبا، ويقاتل حميَّة .

فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلَّا أنه كان قائما[(١)]؛ فقال:

صوابا، ولم يكن خالصا لم يقبل؛ حتى يكون خالصا صوابا)، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ۝١١٠﴾ [الكهف]» انتهى من «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص٢٩٣/ ط الفرقان/ ١٤٢٢)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٣) .

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٧٢-١٧٣)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٧٨)، (١١/ ٦١٢)، (١٦/ ٥٥٦)، (٢٦/ ١٥١)، (٢٧/ ٨٦)، و«اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» (٢/ ٣٨٦-٣٨٧/ ط/ عالم الكتب)، و«الرد على الأخنائي» (ص٢٢٨/ ط العصرية)، و«الرد علي الشاذلي» (١/ ١٧٩/ ط عالم الفوائد)، و«الرد على البكري» (٢/ ٥١٩/ ط الغرباء)، وغيرها .

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله عز وجل» .

❑❑❑

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- مُفسِّرًا قول الله تعالى: وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا [الأعراف/ ٥٦]:

«وبالجملة :

فالشِّرك، والدَّعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متَّبع غير الرسول- صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-هو أعظم الفسَاد في الأرض .

ولا صلاح لها، و[لا] لأهلها إلَّا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدَّعوة له لا لغيره، والطاعة، والاتِّباع لرسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- [ليس إلَّا].

وغيره إنَّما تجب طاعته؛ إذا أمر بطاعة الرسول - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ فإن أمر بمعصيته، [خلاف شريعته] فلا سمع [له]، ولا طاعة .

فإنَّ الله أصلح الأرض برسوله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، ودينه، وبالأمر بالتَّوحيد، ونهى عن إفسادها بالشِّرك به، وبمخالفة رسوله- صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-.

ومن تدبَّر أحوال العالموجد كلَّ صلاح في الأرض؛ فسببه:

توحيد الله، وعبادته، وطاعة رسوله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- .

وكلَّ شر في العالم، وفتنة، وبلاء، وقحط، وتسليط عدوٍّ، وغير ذلك؛ فسببه:

---

(١) ولأجل هذه الجملة بوَّب البخاري في كتاب العلم على الحديث؛ فقال: (باب من سأل، وهو قائم، عالما جالسا) .

مخالفة الرسول - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، **والدَّعوة إلى غير الله.**

ومن تدبَّر [هذا حقَّ التَّدبُّر، وتأمَّل] أحوال العالم [منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها وهو خير الوارثين] وجد هذا الأمر كذلك في خاصَّة نفسه، وفي [حقِّ] غيره عمومًا، وخصوصا، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله [العليِّ العظيم]» انتهى[(١)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٤-٢٥)، ونقله تلميذه ابن القيِّم في «بدائع الفوائد» (٣/ ١٤-١٥)، وما بين المعقوفتين زوائد من نسخة «بدائع الفوائد» ساقط من طبعة «مجموع الفتاوى».

قلت: وهذا النَّقل العزيز النَّافع فيه فوائد عظيمة منها :

الفائدة الأولى : بيانُ ما دلَّت عليه النصوص المستفيضة من أن صلاح البلاد والعباد، والأرض، والعالم كلِّه إنَّما يكون بأربعة أمور: بالدَّعوة إلى توحيد الله تعالى، وبالنهي عن الشرك بالله تعالى، وبالأمر بتحقيق اتِّباع رسوله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، وبالنَّهي عن البدع، والمحدثات .

الفائدة الثانية : وفي هذا النقل النَّافع الردُّ على من يزعم الإصلاح للبلدان، أو الأشخاص، أو الأرض كلِّها، وهو معرض عن هذه الأصول، ناءٍ عنها، وهؤلاء على التَّحقيق ممَّن هم داخلون في قول المولى سبحانه: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة] .

الفائدة الثالثة :بيانُ سبب ما يحصل في العالَم كلِّه، وفي جميع الأرض من (فتن)، و(بلاء)، و(قحط)، و(جدب)، و(زلازل)، و(فيضانات)، و(أعاصير)، و(أمراض عضيلة)، و(حروب)، و(تسلُّط أعداء)، وغير ذلك كلُّه من إضاعة (توحيد الله تعالى)، ومن تضييع (اتِّباع رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-) كل بحسبه .

الفائدة الرابعة :أن الله تعالى لا يسلِّط عدوًّا كافرا ظالمًا على المسلمين والمؤمنين إلَّا بتضييعهم واجب الإيمان، وبنقص إيمانهم ينقص نصيبهم من النصر، والتأييد، والظهور؛ ولهذا إذا أصيبَ العبد بمصيبةٍ في نفسه، أو ماله، أو بإدالة عَدُوِّه عليه؛ فإنَّما هي بذنوبه، إما

❑❑❑

بترك واجبٍ، أو فعل محرم، وهو من نقْص إيمانه .

الفائدة الخامسة : القادة، والرؤساء، والأمراء، والعلماء، والمصلحون، وغيرهم إنما يطاعون في طاعة الله تعالى، ورسوله صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم، فإن أمروا بمعصية الله، أو بما هو من خلاف الشَّريعة؛ فلا تجوز طاعتهم، ولا سمع، ولا طاعة في ذلك؛ وإن ادَّعى صاحبه أنَّه ينصر دين الله تعالى .

وهذا من أسباب (إصلاح الأرض)، وعدم (إفسادها)، والله أعلم .

الفَصْلُ الثَّانِي

أثر العلم النَّافع في توحيد كلمة المسلمين

إنَّ العلم بعقيدة التَّوحيد، التي جاءت بها الرُّسل، ونزلت بها الكتب، والدَّعوة إلى هذا العلم الجليل النَّافع هو سبيل توحيد كلمة المسلمين، والتَّأليف بين قلوبهم، ونشر المحبَّة بينهم، والتَّناصر، والتَّوادِّ، والتَّراحم؛ لأنَّ به إقامةَ الدِّين كما أنزله الله تعالى، ولأنَّه سبيل ربُّ العالمين.

والجهل بالتَّوحيد، والبغي ممَّا فرَّق الأمَّة، وأنكى فيها جراح التَّمزُّق، والتَّدابر، والتَّقاطع[1] .

ومن المتقرِّر أن التَّمسُّكَ، والاعتصامَ بالكتاب، والسُّنَّة، وما كان عليه سلف الأمَّة - وهو العلم النَّافع- هو الذي يجمع الأمَّة على كلمة سواء، وهو الدِّين الَّذي أنزله الله تعالى لعباده، وبه سعادتهم، وفلاحهم، ونهضتهم، وعزُّهم .

ومن أراد جمع الأمَّة بغير هذا؛ فإنَّما يزيدها فرقة، وشتاتًا، وتناحرًا، وتمزُّقًا، واختلافًا، وهو من الَّذين فرَّقوا دينهم، واتَّبعوا سُبُل الشَّيطان .

والدليل على هذا :

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] .

---

(١) وانظر: مبحثا لطيفا لشيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الاستقامة» (١/ ٢٤-٣٢/ رشاد سالم).

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم].

❑❑❑

وقد أحسن في تقرير هذا، وإيضاحه :

صاحب الفضيلة العلامة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان - حفظه الله تعالى، وجزاه عن الإسلام، وأهله خير الجزاء-؛ فقال :

«الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول ما يبدءون بدعوة التوحيد، قال الله تعالى في نوح - عليه السلام- : ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓ [الأعراف/ ٦٥]، وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ [الأعراف/ ٧٣]، وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ [الأعراف/ ٨٥].

بل إنه سبحانه وتعالى أجمل الرسل في قوله: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ [النحل/ ٣٦].

وقال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء].

هذا هو الأساس، وهذا هو الأصل، وهذا هو القاعدة.

فكيف نزهد في هذا الأمر، ونغفل عنه، ونخطِّئ من يدعو إليه، ويقال عن هذا يفرِّق بين المسلمين!، لا هذا لا يفرق بين المسلمين **هذا يجمع كلمة المسلمين؛ لأن كلمة المسلمين لا تجتمع إلَّا على كلمة التوحيد، ولا يستتب الأمن والاستقرار إلا على التوحيد.**

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا [النور/ ٥٥].

بهذا الشرط، هذا هو الأساس؛ إنما تحصل هذه المطالب العظيمة بعبادة الله وحده، لا شريك له ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا.

فلا تجتمع كلمة الأمة، ولا يصحُّ بناء الأمَّة إلَّا على كلمة التَّوحيد، على عقيدة التَّوحيد الصَّحيحة.

أما إذا دخل الشرك، وتفشَّت البدع، والخرافات، وتُركِت، وقيل: (اتركوا الناس، الناس أحرار في عقائدهم اتركوهم لا تنفروهم)، **بهذا يحصل الاختلاف، ويحصل التَّفرُّق، ويدخل الشيطان بين صفوف المسلمين؛ فيفرق جماعتهم كما هو الواقع** .

أضرب لكم مثلاً في هذه البلاد :

هذه البلاد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب - رحمه الله- إلى التَّوحيد كانت متفرقة، كل قرية لها أمير، وحكومة، وكلُّ قرية تخض للأخرى، وكل قرية تحارب الأخرى، بل يذكر التاريخ أن أهل القرية يتقاتلون فيما بينهم، سلبا ونهبا وقتلا وتقتيلا.

فلما جاء الله بهذه الدعوة المباركة على يد هذا الرجل الصالح المفلح توحَّدت البلاد، وصارت تحت قيادة واحدة، وصارت لها دولة قامت على الدِّين، وعلى التوحيد، ولا زالت ولله الحمد .

هذا لأنه أسَّس التوحيد، لكن قبل أن يؤسِّس التوحيد في البلاد كانت البلاد متفرقة، وكانوا يتبركون بالأشجار، والأحجار، وكان السحرة يعملون عملهم بين الناس، وكان المشعوذون يتجولون في القرى، ويخرِّبون عقائد الناس، وكان الحكم عند القبائل، والعوائد الجاهلية ما فيه حكم بالشرع، ولا فيه عقيدة صحيحة، ولا فيه اجتماع، فلما جاء الله بهذا النور، وبهذه الدعوة المباركة توحَّدت البلاد، واطمأن العباد، وأقيمت الحدود، وأمر بالمعروف، ونهي من المنكر، وصار المسلمون أخوة، هذا ببركة عقيدة التوحيد الصالحة الصحيحة .

وحالة العرب قبل بعثة الرسول - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- كانوا متفرِّقين متشتِّتين، ثارات، وغارات، وقبائلَ؛ فلمَّا بُعث النبي - صلَّى الله، عليه،

وعلى آله، وسلَّم-، ودعاهم إلى التوحيد، واستجابوا لله، ورسوله توحَّدوا، وصاروا قوة هائلة في الأرض، سادت العباد، والبلاد .

وذكَّرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران] ..

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران] .

كانوا قبل بعثة الرسول - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- في ضلال مبين، وكانوا مطمعاً للشعوب الأخرى - فارس، والروم-، وكل دولة من دول الكفر كان لها نصيب في جزيرة العرب؛ فلما جاء الإسلام، ودخلوا في دين الله انعكس الأمر؛ فصارت جزيرة العرب تسيطر على العالم، وامتدت الفتوح، وانتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

والإمام مالك - رحمه الله- يقول: [**لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها**]؛ فإذا كانت هذه الأمة - الآن- تريد الاجتماع، وتريد القوة، وتريد الائتلاف؛ فإنَّه لا يصلحها، إلَّا ما أصلح أوَّلها .

الذي أصلح أولها هو التَّوحيد، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بالتَّوحيد، والاجتماع على كلمة التَّوحيد، وعلى كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- .

هذا هو الذي يجمع الأمة: (العقيدة الصحيحة)، و(العمل الصالح) .

الله تعالى يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾

[التوبة/ ٣٣] .

ٱلْهُدَىٰ هو (**العلم النَّافع**)، وَدِينِ ٱلْحَقِّ هو (**العمل الصالح**) .

ولا يمكن أن تجتمع هذه الأمَّة إلَّا بـ(العلم النَّافع، والعمل الصالح) الذي أساسه التَّوحيد، وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة» انتهى كلامه[1]، وهو كما تراه قوَّة، وظهورًا.

❑❑❑

(١) من محاضرة بعنوان: «أهمية التوحيد»، أُلقيَت في ٢٨/ ٢/ ١٤١٣ هـ .

الفَصْلُ الثَّالِث

ومن آثار العلم النَّافع في حفظ مجتمعات المسلمين :

ما يكون من أثر العلم النَّافع في إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الناس، والتفقُّه في فقهها، والعمل فيها على مقتضى الشريعة، ولا يكون هذا إلا بالعلم النَّافع.

فإذا قامت سوق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كان في ذلك للأفراد، والمجتمعات من مصالح المعاش والمعاد، وفوائد الدُّنيا والدِّين، ما لا تقوم حياة الناس إلَّا به[(١)] .

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران] .

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد/ ٢٥] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى– :

---

(١) «رفع الريبة في بيان ما يجوز وما لا يجوز من الغيبة» للشوكاني (ص٣٣/ ضمن مجموعة رسائل طبعتها الجامعة الإسلامية)، وانظر: «الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني» (١١/ ٥٥٧٨) .

«فالمقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله، وحقوق خلقه .

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ .

فمن عدل عن الكتاب قُوِّم بالحديد؛ ولهذا كان قِوام الدِّين بالمصحف، والسَّيف» انتهى[1] .

❑❑❑

وقد عاقب الله تعالى اليهود بتضييعهم هذا الباب العظيم مع بلوغ العلم إليهم بوجوبه، بل ضرورته؛ حتى لعنهم الله تعالى .

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة] .

❑❑❑

وجاء في «صحيح البخاري» (٢٤٩٣) من حديث زكريا بن أبي زائدة الهمداني، قال: سمعت عامرا الشعبي، يقول: سمعت النعمان بن بشير - رضي الله عنهما-، عن النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- قال :

«مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة؛ فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها .

فكان الذين في أسفلها إذا استَقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم .

فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا .

---

(١) «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» (ص ٢٧/ ط دار المعرفة) .

فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا» .

❑❑❑

وقد أحسن غاية الإحسان في بيان هذا الفصل، وبيان ضرورة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لحفظ مجتمعات المسلمين، وإقامة الدِّين، وصلاح الدُّنيا :

الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) - رحمه الله تعالى- في رسالته «رفع الريبة في بيان ما يجوز وما لا يجوز من الغيبة» (ص٣٣-٣٤/ ضمن مجموعة رسائل طبعتها الجامعة الإسلامية)؛ فقال ماحرفه :

«اعلم أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هما من أعظم عمد الدين؛ لأنَّ بهما حصول مصالح الأولى والأخرى .

فإن كانا قائمين قام بقيامها سائر الأعمدة الدينية، والمصالح الدنيوية .

وإن كانا غير قائمين لم يكثر الانتفاع بقيام غيرهما من الأمور الدينية والدنيوية.

وبيان ذلك:

أن أهل الإسلام إذا كان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فيهم ثابت الأساس، والقيام به هو شأن الكلِّ أو الأكثر من الناس؛ فالمعروف بينهم معروف، وهم يد واحدة على إقامة من زاغ عنه، ورد غواية من فارقه، والمنكر لديهم منكر، وجماعتهم متعاضدة عليه، متداعية إليه، متناصرة على الأخذ بيد فاعله، وإرجاعه إلى الحق، والحيلولة بينه وبين ما قارفه من الأمر المنكر .

فعند ذلك لا يبقى أحد من العباد في ظاهر الأمر تاركا لما هو معروف، ولا

فاعلا لما هو منكر، لا في عبادة، ولا في معاملة؛ فتظهر أنوار الشرع، وتسطع شموس العدل، وتهب رياح الدين، وتستعلن كلمة الله في عباده، وترتفع أوامره، ونواهيه، وتقوم دواعي الحقِّ، وتسقط دواعي الباطل، وتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو المرجوع إليه، والمعمول به، وكتابه الكريم، وسنة رسوله المصطفى - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- هما المعيار الَّذي توزن به أعمال العباد، ونرجع إليهما في دقيق الأمور وجليلها.

وبذلك تنجلي ظلمات البدع، وتنقصم ظهور أهل الظلم، وتنكسر نفوس أهل معاصي الله، وتخفق رايات الشَّرع في أقطار الأرض، وتضمحل جولات الباطل في جميع بلاد الله عز وجل .

وأما إذا كان هذان الركنان العظيمان غير قائمين، أو كانا قائمين قياما صوريا، لا حقيقيًّا؛ فهناك كم من بدع تظهر، ومن منكرات تستعلن، ومن معروفات تستخفي، ومن جولات للعصاة، وأهل البدع تقوى، وترتفع، ومن ظلمات بعضها فوق بعض تظهر في الناس، ومن هرج ومرج في العباد يبرز للعيان، وتقرُّ به عين الشيطان .

وعند ذلك يكون المؤمن كالشاة العائرة، والعاصي كالذئب المفترس .

وهذا بلا شك ولا ريب يقضي بمحو رسوم الدين، وذهاب نور الهدى، وانطماس معالم الحق» انتهى المراد[1] .

❑❑❑

وقال سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز ابن باز (ت١٤٢٠) - رحمه الله

(١) «الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني» (١١/ ٥٥٧٦-٥٥٧٨) .

تعالى- ناصحا طلَّاب العلم النَّافع :

«**ثمَّ طالب العلم بعد ذلك حريصٌ جدًّا أن لا يكتم شيئا ممَّا علم، حريص على بيان الحقِّ، والردِّ على الخصوم لدين الإسلام، لا يتساهل ولا ينزوي، فهو بارز في الميدان دائما حسب طاقته.**

فإن ظهر خصوم للإسلام يشبِّهون، ويطعنون برز للردِّ عليهم كتابة، ومشافهة، وغير ذلك، لا يتساهل، ولا يقول هذه لها غيري، بل يقول: (أنا لها)، (أنا لها) .

ولو كان هناك أئمَّة آخرون يخشى أن تفوت المسألة؛ فهو بارز دائما لا ينزوي، بل يبرز في الوقت المناسب لنصر الحقِّ، والردِّ على خصوم الإسلام بالكتابة وغيرها. .

من طريق الإذاعة، أو من طريق الصَّحافة، أو من طريق التِّلفاز، أو من أي طريق يمكنه .

وهو -أيضا- لا يكتم ما عنده من العلم، بل يكتب، ويخطب، ويتكلَّم، ويردُّ على أهل البدع، وعلى غيرهم من خصوم الإسلام بما أعطاه الله من قوة، حسب علمه، وما يسَّر الله له من أنواع الاستطاعة» انتهى المراد[1] .

❑❑❑

(١) «مجموع فتاوى ابن باز» (٧/ ٢١٩-٢٢٠) من محاضرة نافعة جدا ألقاها سماحة الشيخ في كلية الشريعة بجامعة الإمام بالرياض عام ١٤١٠ هـ بعنوان: (مسؤولية طالب العلم) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أثر العلم النَّافع في ثبات المجتمعات، وحفظها، ونمائها، وازدهارها

إن هذا الدِّين العظيم، وهو دين الأنبياء، والمرسلين جاء بالحثِّ على العلم، وتطوير مناحي الحياة، ورفع منار العلوم في شتَّى موارد الحياة الإنسانية .

فلم يقف من العلوم التجريبية والتطبيقية موقف المعادَاة، والمضادَّة كما صنعت الكنيسة في أوروبا؛ حتَّى انفجر الصراع الدَّامي في القرون الوسطى بين (العلم)، و(الكنيسة)!، وسُطِّر فيه للكنائس أبشع صور الإجرام .

إن الإسلام جاء بتعظيم العلم، ورفع مكانة أهله، وحذَّر من استخدام العلم في البغي على الناس، وظلمهم .

ولهذا فالعلم بكلِّ صوره لا بدَّ فيه من طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ وبهذا تحصل السعادة، والفلاح في الدَّارين .

إن الناظر الحصيف في حضارات المسلمين في كل مكان، يرى أنها كانت من أعظم روافد الصِّناعة في البشرية، ولا زال النَّاس عالة على علومها التطبيقية والتجريبيَّة في الطبِّ، والفلك، والرِّياضيَّات، والهندسة المعماريَّة، وغير ذلك، ولا زالت كتب المسلمين تدرَّس إلى هذه الساعة في كبريات الجامعات في العالم؛ فعلى أيِّ شيء يدلُّ هذا .

ولم يسطَّر للمسلمين في حضاراتهم أن علومهم كانت سبيلا للفساد، أو الإفساد، أو الموت، أو الدَّمار، بل كانوا رحمة للبشريَّة، ومصابيح هدى للنَّاس .

وأعلا العلوم، وأشرفها، وأنفعها، وأبرُّها :

(العلم بما جاءت به الرسل، وهو العلمالموروث عن النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ **فإنه هو الذي يستحقُّ أن يسمَّى علمًا [نافعًا])**[1]، وغيره تابع له، موجَّهٌ به .

❑❑❑

يقول الإمام ابن القيِّم - رحمه الله تعالى- :

«**إن بقاء الدِّين والدُّنيا في بقاء العلم، وبذهاب العلم تذهب الدُّنيا والدِّين .**

فقوام الدِّين والدُّنيا إنما هو بالعلم .

قال الأوزاعي قال ابن شهاب الزهري : **(الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعا؛ فنعش العلم ثبات الدِّين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كلِّه)** .

وقال ابن وهب أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال: بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون:

(الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعا؛ فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله)» انتهى[2] .

وقال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- :

«**العلم إذا ظهر في الأرض، وعُمل به درَّت البركات، ونزلت الأرزاق؛ فيعيش أهل الأرض كلُّهم؛ حتى النملة!، وغيرها من الحيوانات ببركتِه**، ويستبشر

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٤) .

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٦٤/ ط دار الكتب العلمية) .

أهـل السَّـماء بـما يرتفـع لأهـل الأرض مـن الطَّاعـات، والأعـمال الصَّـالحات؛ فيستغفرون لمن كان السَّبب في ذلك، وعكسُ هذا أنَّ من كتم العلمَ الَّـذي أمـر الله بإظهاره لعنه الله، وملائكتُه، وأهل السماء والأرض؛ حيث سعى في إطفاء نـور الله في الأرض، الذي بسبب إخفائه تظهر المعاصي، والظُّلم، والعداوة، والبغي .

قـــال الله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة] .

فإنَّ كتمَان (العِلم النَّافع) سببٌ لظهور الجهـل، والمعـاصي؛ وذلـك يُوجِـب محـوَ المطـر، ونزولَ البلاء؛ فيعم دوابَّ الأرض؛ فتهلك بخطايا بني آدم؛ فـتَلعنُ الـدَّوابُّ مَـن كـان سـبباً لذلك» انتهى[1] .

❑❑❑

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٣٠و٣١/ ط الفاروق الحديثة) .

الفَصْلُ الخَامِسُ

أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة في أمنها، وسلامتها من الفتن

إنَّ من جميل أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة، وسلامتها، وحفظها من الشرور :

ما جرى من صلح الحسن بن علي، ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما- وما كان في ذلك من نفع عظيم جدًّا على الأمَّة كلِّها، وكان ذلك توفيقًا من الله تعالى للحسن- رضي الله عنه-، **وفهمًا، وعلمًا نافعًا أُلهِمَهُ، ووفِّقَ إليه؛ فعمل به؛ ما بقيَ له أُحدوثةَ مدح في سماء الفضائل** .

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري (ت٢٥٦) - رحمه الله تعالى- في «صحيحه» (٧١٠٤) من حديث الحسن البصري، قال: **استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال**، فقال عمرو بن العاص: إنِّي لأرى كتائب لا تولي حتَّى تقتل أقرانها .

فقال له معاوية وكان والله خير الرجلين: أي عمرو إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور النَّاس من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم .

فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز؛ فقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه .

فأتياه، فدخلا عليه، فتكلما، وقالا له، فطلبا إليه .

فقال لهما الحسن بن علي: **إنا بنو عبد المطلب، قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها** .

قالا: فإنَّه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك، ويسألك .

قال: فمن لي بهذا، قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئا إلا قالا: نحن لك به، فصالحه .

فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: **رأيت رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**.

وفي رواية : «فقال عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة: **نلقاه؛ فنقول له الصلح**» .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلِّقًا :

«**فأصلح الله بالحسن بين أهل العراق، وأهل الشام؛ فجعل النبي** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **الإصلاح به من فضائل الحسن مع أن الحسن نزل عن الأمر، وسلَّم الأمرَ إلى معاوية** .

فلو كان القتال هو المأمور به دون ترك الخلافة[1]، ومصالحة معاوية، لم يمدحه النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- على ترك ما أمر به، وفعل ما لم يؤمر به، ولا مدحه على ترك الأولى، وفعل الأدنى .

فعلم أن الذي فعله الحسن هو الذي كان يحبه الله ورسوله؛ لا القتال»

---

(١) تدبَّر هذا الموضع ! .

انتهى[1] .

قلت :

فتدبَّر أثر العلم النَّافع في حقن دماء أمتين عظيمتين من المسلمين، وتدبَّر في فقه تنازل الحسن عن (الخلافة)، وما يصنعه في عصرك أقوام وفئام من سفك الدِّماء المعصومة، واستباحة الفتن الدَّهماء؛ لأجل (الحكم) دون نظر لما يحبُّه الله تعالى، ورسوله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- من رعاية صالح المسلمين، وارتكاب أدنى المفاسد، حفاظًا على المصالح الكبرى؛ فاللَّهم اعصمنا بهداك، وأصلح أحوال المسلمين في كلِّ مكان .

❑❑❑

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٤٩)، وانظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٣/ ٥٦٠)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٠٧) .

الخاتمة

وفيها ثلاثة فصول :

الفصل الأول:

في بيان أن نجاة الأمَّة من الفتن، والضَّلال هو بالرَّجوع إلى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم، واجتناب أشباه العلماء من أهل الفتن والزيغ .

الفصل الثاني:

طريق أخذ العلم النَّافع، وسبيل نيله .

الفصل الثالث:

صفة ما ينبغي أن يكون عليه العالم، وطالب العلم النَّافع من الزهد في الدُّنيا، والتَّرفُّع عن مطامعها، وصيانة نفسه عن التَّذلُّل، والتَّزَيُّن لأهل الغنى، واليسَار، والسَّلاطين .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

في بيان أن نجاة الأمَّة من الفتن، والضَّلال هو بالرُّجوع إلى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم، واجتناب أشباه العلماء من أهل الفتن والزيغ

وهذا الأصل من أعظم أسباب السلامة، والنَّجاة من الفتن المضلَّة، ولهذا جاء الأمر به، للفرد، والمجتمع، وجاء التَّصريح بالنَّهي عن سلوك ضدِّه، وأنَّه من أبواب الهلاك، والضَّلال عياذًا بالله تعالى[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء].

وقال عز وجل: فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل].

قال الإمام الربَّاني أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى- : «**وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء**» انتهى[2].

فأمر الله سبحانه وتعالى الأمَّة بسؤالهم، والرجوع الى أقوالهم، وجعل ذلك

---

(١) وعامَّة بلاء الأمَّة اليوم في هذه الفتن النازلة في سائر بلاد الإسلام هو من إضاعة هذا المعلم الواضح، والسَّير خلف كلِّ غادٍ ورائح، والاستجابة لكلِّ ناعق صائح، نسأل الله اللُّطف بالمسلمين في كلِّ مكان.

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٥٠/ ط دار الكتب العلمية).

كالشهادة منهم .

وقد أخرج البخاري في «صحيحه» (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال:

سمعت رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ حتى إذا لم يَبق عالم اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا؛ فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا**».

بوب الإمام البخاري في «صحيحه» على الحديث؛ فقال: (**باب: كيف يقبض العلم؟**) .

وفي رواية في «صحيح البخاري» (٧٣٠٧) : «**فيبقى ناس جهال، يُستَفتَون فَيُفتُون برأيهم**» .

❑❑❑

وقال البخاري في «صحيحه» في أوَّل كتاب الفرائض؛ فقال: (**وقال عقبة بن عامر: «تعلموا قبل الظَّانِّين»**) قال البخاري:(**يعني: الَّذين يتكلَّمون بالظنِّ**) .

قال الإمام أبو زكريَّا النَّووي (ت٦٧٦) - رحمه الله تعالى- :

«ومعنَاه: تعلَّموا العلم من أهله المحقِّقين الورعين، قبل ذهابهم،ومجئ قوم يتكلَّمون في العلم بمثل نفوسهم، وظنونهم،الَّتى ليس لها مستندٌ شرعي» انتهى [(١)] .

❑❑❑

قال الإمام الربَّاني أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١) - رحمه الله تعالى- :

«**مَن أفتى النَّاس، وليس بأهل للفتوى؛ فهو آثمٌ عاص، ومن أقرَّه من ولاة**

---

(١) «المجموع شرح المهذَّب» للنَّووي (١/ ٢٠/ ط دار الفكر)، وفيه عن الشافعي عبارات لطيفة في فضل العلم .

الأمور على ذلك؛ فهو آثم - أيضًا- .

قال أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله -:

ويلزمَ وليَّ الأمر منعُهم، كما فعل بنو أمية، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب، وليس له علم بالطريق، وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القبلة، وبمنزلة من لا معرفة له بالطب وهو يطب الناس .

بل هو أسوأ حالا من هؤلاء كلهم .

وإذا تعيَّن على ولي الأمر منع من لم يحسن التطبُّب من مداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة، ولم يتفقَّه في الدِّين ؟ .

وكان شيخنا - رضي الله عنه - شديد الإنكار على هؤلاء، فسمعته يقول :

قال لي بعض هؤلاء: أجعلت محتسبا على الفتوى؟ .

فقلت له: **يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟**»[1] انتهى .

❑❑❑

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- :

«وهذا بخلاف المجتهد الذي :

١/ اتقى الله ما استطاع .

٢/ وابتغى طلب العلم بحسب الإمكان .

٣/ وتكلَّم ابتغاء وجه الله .

٤/ وعلم رجحان دليل على دليل، فقال بموجب الراجح .

---

(١) «أعلام الموقعين عن رب العالمين» (٤/ ١٦٦-١٦٧/ ط دار الكتب العلمية) .

فهذا مطيع لله مأجور أجرين إن أصاب، وإن أخطأ أجرًا واحدًا» انتهى كلامُهُ[1] .

❑❑❑

ومع هذا فإن السَّلف الصالح - رضوان الله تعالى عليهم- **كانوا أشدَّ تباعدًا عن الفتوى**، ولهم في باب الفتوى - مع حاجة الأمَّة إلى فتاويهم- أحوالٌ غريبة، ومواقف عجيبة تدلُّ على عظيم ورعهم، وشدَّة خوفهم من ربِّهم تبارك وتعالى .

(و[قد] كان مالك - رحمه الله - يقول: **من سئل عن مسألة؛ فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنَّار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها** .

وسئل عن مسألة فقال: (**لا أدري**)؛ فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة ! .

فغضب، وقال: **ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله عز وجل:** ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل] .

فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة) .

وقال: (**ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك)** .

وقال: (**لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيت**).

قال: (**وإذا كان أصحاب رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **تصعب عليهم المسائل، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غطت الذنوب**

---

(١) «الإخنائية» (ص١٧-١٨/ ط العصرية) .

والخطايا قلوبنا ؟) .

وكان - رحمه الله - **إذا سئل عن مسألة؛ فكأنه واقف بين الجنة والنار** .

وقال عطاء بن أبي رباح: **(أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسأل عن شيء؛ فيتكلَّم، وإنه ليرعد)** .

وقال الإمام أحمد: **(من عرَّض نفسه للفتيا؛ فقد عرَّضها لأمر عظيم، إلَّا أنه قد تلجئ الضَّرورة)**[1] .

فتدبَّر كيف عظَّم شأن (الفتوى)، وجعلها مستباحة عند الضرورة ؟! .

هذا في أئمَّة مشهود لهم بالإمامة؛ فكيف بغيرهم ممَّن لا يذكر معهم إلَّا تجوُّزًا؟ .

وصدق المتنبي؛ إذ قال :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيفَ يَـنقُصُ قَـدرُهُ

إِذَا قِيـلَ: إِنَّ السَّـيفَ أَنضَى مِـن العَصَى

❑❑❑

(١) «أعلام الموقعين عن رب العالمين» (٤/ ١٦٧/ ط دار الكتب العلمية) .

الفَصْلُ الثَّانِي

طريق أخذ العلم النَّافع، وسبيل نيله

إذا علمت منزلة العلم العَليَّة المنيفة، ومكانته العالية الشريفة، وفضائله الجمَّة في الـدُّنيا والآخـرة، وضرورة تعلُّمـه، وشـدَّة حاجـة النـاس إليـه في حيـاتهم، ومعاشهم، ومعادهم، وأثر العلم النَّافع في صلاح الفرد والمجتمع .

فاعلم أنَّ للعلم طريقًا من سلكها تشرَّف به، وحصل عليه، ومن تنكَّب عنها انقطع عنه العلم، ولم يصل إليه، وضاع زمنه في غير طائل، وربما دخل في المضايق، وووقع في المهالك، والغوائل .

وتقدَّم - أيضًا- أن العلم عبادة عظيمة، وأن العبـادة شرطهـا الإخـلاص لله تعالى، ومتابعة رسوله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- .

كما قـال تعـالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة] .

ولقد أحسن برهان الإسلام الزرنوجي (المتوفَّى أول القرن السابع) في مقدِّمة رسالته المشهورة بـ«تعليم المتعلم طريق التعلم»؛ إذ حكى فيها حال طلاب العلـم الَّذين أدركهم في زمانه!؛ فكيف بأزماننا هذه؟، فقال - رحمه الله تعالى- :

«رأيت كثيرا من طلاب العلم فى زماننا يجِدُّون إلى العلم، ولايصـلون، ومـن منافعه، وثمراته - وهى العمل به، والنَّشر- يحرمـون؛ لَـا أنهـم أخطـأوا طريقَـه، وتركوا شرائطَه .

وكلُّ من أخطأ الطَّريق ضلَّ، ولاينال المقصودَ قلَّ، أو جلَّ[1] » انتهى المراد .

---

(١) وقد أبان العلامة المحقق الأصولي الفقيه عبد القادر بن أحمد بن بدران الدِّمشقي الحنبلي (ت١٣٤٦) في كتابه «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» (ص٤٨٥- ٤٨٦/ ط الرِّسالة) جانبًا من قضيَّة (**الخطإ في طريقِ العلم، وترك شرائطَه**)، وهو: **جانب سوء تعليم بعض المعلِّمين** - وما أكثرهم-، **وتَوعيرهم طريق العلم على الطَّالب المبتدئ**؛ فقال :

«اعلَم أَن كثيرا من النَّاس يقضون السِّنين الطِّوَال فِي تعلُّم العلم، بل فِي علم وَاحِد! وَلَا يحصِّلون مِنهُ على طائل، وَرُبمَا قضوا أعمارهم فِيه، وَلم يرتقوا عَن دَرَجَة المبتدئين!؛ **وَإِنَّمَا يكون ذَلِك لأحد أَمرين: أَحدهمَا: عدم الذكاء الفطري، وَانتِفَاء الإِدرَاك التَّصوُّري**، وَهَذَا لَا كَلَام لنا فِيهِ، وَلَا فِي علاجه .

والثَّانِي: الجَهل بطرق التَّعلِيم، وَهَذَا قد وَقع فِيهِ غَالب المعلِّمين؛ فتراهم يَأتِي إِلَيهِم الطَّالِب المبتدىء، ليتعلم النَّحو - مثلا- فيشغلونه بالكلَام على البَسمَلَة، ثمَّ على الحمدلة أَيَّامًا، بل شهورًا ليوهموه سَعَة مداركهم، وغزارة علمهم، ثمَّ إِذا قدر لَهُ الخَلَاص من ذَلِك، أخذُوا يلقِّنونه متنًا، أَو شرحًا بحواشيه، وحواشي حَوَاشِيه، ويحشرون لَهُ خلاف العلمَاء، ويشغلونه بِكَلَام من ردَّ على القَائِل، وَمَا أُجِيب بِهِ عَن الرَّد، وَلَا يزالون يضربُونَ لَهُ على ذَلِك الوتر؛ حَتَّى يرتكز فِي ذهنه أَن نوال هَذَا الفَنِّ من قبيل الصَّعب الَّذِي لَا يصل إِلَيهِ إِلَّا من أُوتِيَ الولَايَة، وَحضر مجلِس القرب، والاختصاص، هَذَا إِذا كَانَ الملقِّن يفهم ظَاهرًا من عِبَارَات المصنِّفين، وَأما إِذا كَانَ من أهل الشغف بالرسوم أُشير إِلَيهِ بِأَنَّهُ عَالم؛ فمَوَّه على النَّاس، وَأنزل نَفسه منزلَة العلمَاء المُحَقِّقين، وَجلسَ للتعليم؛ فيأتيه الطَّالِب بِكِتَاب مطوَّل، أَو مُختَصر فيتلقَّاه مِنهُ سردًا لَا يفتح لَهُ مِنهُ مغلقا، وَلَا يحل لَهُ طِلسما؛ فَإِذا سَأَلَهُ ذَلِك الطَّالِب المِسكِين عَن حلِّ مُشكل انتفخ أَنفه، وورُم، وقابله بالسبِّ، والشتم، وَنسبه إِلَى البَهَائِم، ورماه بالزندقة، وأشاع عَنهُ أَنه يطلب الِاجتِهَاد .

ومن أُولَئِكَ من لَا يروم الحماقة لكنه يَقُول:(إننا نَقرَأ الكتب للتبرُّك بمصنِّفيها)!، وَأكثر هَؤُلَاءِ هم الَّذين يتصدَّرون لأقراء كتب المتصوِّفة؛ فَإِنَّهُم يصرِّحون بِأَن كتبهم، لَا يفهمها إِلَّا أَهلهَا، وَأَنَّهُم إِنَّمَا يشغلون أوقاتهم بهَا تبرُّكا ! .

والمراد بيانه في هذا الفصل :

أن العلم النَّافع لا ينال إلَّا بالتَّلقِّي[1] عمَّـن هـم أهـل للأخـذ عـنهم عقيـدةً،

ولعمري لَو تبرَّك هَؤُلَاءِ بِكِتَاب الله المنزَّل؛ لَكَانَ خيرا لَهُم من ذَلِك الفُضـول، وَهَـؤُلَاء كالمُنبتِّ لَا أَرضًا قطع، وَلَا ظهرا أبقَى» انتهى .

(١) ولا بدَّ فيه من مراعاة (منهج التَّرقِّي)، وهو التَّدرج في الطلب، كما تجب العنايـة بـ(التَّوقِّي في الشيوخ، وفي كتب العلم)، وقد أجاد في بيَان هذا العلامة الشيخ بكر بن عبد الله أبـو زيـد (ت١٤٢٩) - رحمـه الله تعـالى- في جزئـه «حليـة طالـب العلـم» (ص١٥٤-١٥٥و١٥٧-١٥٨/ ضمن المجموعة العلميَّة)؛ فقال: «**وعليه، فلا بد من التَّأصيل والتَّأسيس لكل فن تطلبه، بضبط أصله، ومختصره على شيخ متقن، لا بالتَّحصيل الـذَّاتي وحـده، وآخـذاً الطَّلبَ بالتَّدرج** .

فأمامك أمور لابد من مراعاتها في كل فن تطلبه :

حفظ مختصر فيه.

ضبطه على شيخ متقن.

عدم الاشتغال بالمطولات، وتفاريق المصنفات قبل الضبط، والإتقان لأصله .

لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب؛ فهذا من باب الضجر .

اقتناص الفوائد، والضوابط العلمية .

جمع النفس للطَّلب، والترقِّي فيه، والاهتمام، والتحرُّق للتَّحصيل، والبلوغ إلى ما فوقـه؛ حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة» انتهى المراد، ثم وصف حال العلم في نجد، والكتب المقروءة، ودوام تدريس العلم في سائر اليوم، وأدبار الصلوات، إلى أن قال :

«وكانوا مع ذلك يأخـذون بجـرد المطـولات؛ مثـل «تـاريخ بـن جريـر»، وابـن كثـير، وتفسيرهما، ويركِّزون على كتب شيخ الإسلام ابن تيميـة، وتلميـذه ابـن القـيم - رحمهـما الله تعالى-، وكتب أئمَّة الدعوة، وفتاواهم، لاسيما محرَّراتهم في الاعتقاد .

وهكذا كانت الأوقات عامرة في الطلب، ومجالس العلم، فبعد صلاة الفجـر إلى ارتفـاع الضحى، ثم تقول القيلولة قبيل صـلاة الظهـر، وفي أعقـاب جميـع الصـلوات الخمـس تعقـد

وسلوكًا، علمًا، وعملًا، والحرص على الاستفادة منهم، وتحمُّل المشاقِّ في ذلك، والتَّواضع لهم، وتَعظيمهم، وحسن التَّأدُّب معهم، والبِرَّ بهم، وطاعتهم في طاعة الله تعالى .

قال العلامة الشَّيخ بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩) - رحمه الله تعالى- في جزئه الفريد «حلية طالب العلم» (ص١٥٨-١٥٩/ ضمن المجموعة العلميَّة):

«**الأصلُ في الطَّلَب أن يكون بطريق التَّلقين، والتلقِّي عن الأساتيذ، والمثافنة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال، لا من الصُّحف، وبطون الكتب** .

والأوَّل من باب أخذ النسيب عن النسيب النَّاطق، وهو المعلِّم .

أما الثاني عن الكتاب، فهو جماد؛ فأنى له اتصال النسب؟ .

وقد قيل: (**من دخل في العلم وحده؛ خرج وحده**)؛ أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ؛ خرج منه بلا علم؛ إذ العلم صِنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع، فلا بد إذاً لتعلمها من معلمها الحاذق .

وهذا يكاد يكون محلَّ إجماعِ كلمةٍ من أهل العلم؛ إلَّا من شذَّ» انتهى المراد .

❑❑❑

الدروس، وكانوا في أدب جم وتقدير بعزَّة نفس من الطرفين على منهج السلف الصالح - رحمهم الله تعالى، ولذا أدركوا وصار منهم في عداد الأئمة في العلم جمع غفير، والحمد لله رب العالمين .

فهل من عودة إلى أصالة الطلب في دراسة المختصرات المعتمدة، لا على المذكرات؟، وفي حفظها لا الاعتماد على الفهم فحسب ؟ .

حتى ضاع الطلاب فلا حفظ ولا فهم! وفي خلو التَّلقين من الزَّغل، والشَّوائب، والكدر، سيرٌ على منهاج السَّلف، والله المستعان» انتهى .

ولقد أحسن في بيان هذا الموضع غاية الإحسان :

الإمام المحقق أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠) - رحمه الله تعالى- في كتابه النَّافع «الموافقات» (١/ ١٤٥-١٥٠و١٥٣-١٥٤/ ط دار ابن عفَّان)؛ فقال ما حرفُه :

«**وإذا ثبت أنه لا بدَّ من أخذ العلم عن أهله؛ فلذلك طريقان :**

أحدهما : المشافهة، وهي أنفع الطريقين وأسلمهما؛ لوجهين :

الأول: خاصيَّةٌ جعلها الله تعالى بين المعلِّم، والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم، والعلماء .

فكم من مسألة يقرؤها المتعلِّم في كتاب، ويحفظها، ويردِّدها على قلبه؛ فلا يفهمها؛ فإذا ألقاها إليه المعلِّم فهمها بغتة !، وحصل له العلم بها بالحضرة .

وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن أحوال، وإيضاح موضع إشكال، لم يخطر للمتعلِّم ببال .

وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه الله للمتعلِّم عند مثُوله بين يدي المعلِّم، ظاهر الفقر، بادي الحاجة إلى ما يُلقى إليه .

وهذا ليس ينكر؛ فقد نبه عليه الحديث الذي جاء: «**إن الصحابة أنكروا أنفسهم عندما مات رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-، وحديث حنظلة الأسيدي؛ حين شكا إلى رسول الله - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- أنهم إذا كانوا عنده، وفي مجلسه كانوا على حالة يرضونها؛ فإذا فارقوا مجلسه زال ذلك عنهم .

فقال رسول الله، - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-: «**لو أنكم تكونون كما تكونون عندي؛ لأظلتكم الملائكة بأجنحتها**» .

وقد قال عمر بن الخطاب: «**وافقت ربي في ثلاث**»، وهي من فوائد مجالسة العلماء[1].

إذ يفتح للمتعلِّم بين أيديهم ما لا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النُّور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلِّمهم، وتأدبهم معه، واقتدائهم به .

فهذا الطريق نافع على كل تقدير .

وقد كان المتقدِّمون لا يكتب منهم إلَّا القليل، وكانوا يكرهون ذلك، وقد كرهه مالك؛ فقيل له: فما نصنع؟، قال: (**تحفظون، وتفهمون؛ حتى تستنير قلوبكم، ثم لا تحتاجون إلى الكتابة**).

وحكي عن عمر بن الخطاب كراهية الكتابة، وإنَّما ترخص الناس في ذلك عندما حدث النسيان، وخيف على الشريعة الاندراس .

الطريق الثاني :

مطالعة كتب المصنفين، ومدوِّني الدَّواوين، وهو - أيضا- نافع في بابه؛ بشرطين:

الأول :

أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله؛ ما يتمُّ له به النَّظر في الكتب .

وذلك يحصل بالطريق الأول، ومن مشافهة العلماء، أو ممَّا هو راجع إليه .

وهو معنى قول من قال: (**كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال**) .

---

(١) تدبَّر هذا الموضع ! .

والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا، دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد[1] .

والشرط الآخر :

أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين[2] ، وأصل ذلك التجربة، والخبر .

أمَّا التَّجرُبة؛ فهو أمر مشاهد في أي علم كان، فالمتأخِّر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما يبلغه المتقدم .

وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي، أو نظري؛ فأعمال المتقدِّمين - في إصلاح دنياهم ودينهم- على خلاف أعمال المتأخِّرين، وعلومهم في التَّحقيق

---

(١) تدبَّر هذا الموضع ! .

(٢) ولمَّا أعرض كثير من طالبي العلوم في أزماننا هذه عن كتب الأئمَّة المتقدِّمين في سائر الفنون، واعتمدوا على المذكِّرات، أو بعض مصنَّفات المتأخِّرين، والمختصرات، ظهر ضعفٌ في التَّحصيل، وركاكة في العلم؛ ولأجل هذا المحذور كره جماعة من العلماء للمتأخِّرين التَّصنيفَ، والموضع موضع تفصيل، والله المستعان .

ولقد عاب العلَّامة ابن خلدون (ت٨٠٨)كثرة التَّصانيف في الفنون، شرحًا، وتعليقًا، ومتونًا جديدة؛ حتَّى إن طالب العلم لو أراد تحصيل ما فيها لذهب عمره، ولم يكمل علم العربية منها؛ فضلًا عن سائر العلوم، والفنون؛ فانظر: مقدِّمة «تاريخه» (١/ ٧٢٧-٧٢٨/ ط دار الفكر) في مبحثٍ نفيس .

ولله درُّ شيخ الإسلام ابن تيمية؛ إذ قال في هذا: «وقد أوعبت الأمَّة في كلِّ فنٍّ من فنون العلم إيعابًا؛ فمن نوَّر الله قلبَه هداه بما يبلِّغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلَّا حيرة، وضلالًا؛ كما **قال النبي** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **لأبي لبيد الأنصاري**: «**أوَليست التوراة، والإنجيل عند اليهود، والنصارى؟؛ فماذا تغني عنهم؟**» انتهى المراد من «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٥) .

أقعد.

فتحقُّق الصحابة بعلوم الشريعة، ليس كتحقُّق التابعين .

والتَّابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن، ومن طالع سيرهم، وأقوالهم، وحكاياتهم؛ أبصر العجب في هذا المعنى .

وأمَّا الخَبَر؛ ففي الحديث: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، وفي هذا إشارة إلى أن كل قرن مع ما بعده كذلك[1] .

وروي عن النبيِّ - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-: «**أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك وجبرية، ثم ملك عضوض**»، ولا يكون هذا إلَّا مع قلَّة الخير، وتكاثر الشرِّ شيئا بعد شيء، ويندرج ما نحن فيه تحت الإطلاق .

- ثم ذكر جملة من الأحاديث-، ثم قال :

والأخبار هنا كثيرة، وهي تدلُّ على نقص الدِّين والدُّنيا، وأعظم ذلك العلم؛ فهو إذًا في نقص بلا شكٍّ .

فلذلك صارت كتب المتقدِّمين، وكلامهم، وسِيَرهم؛ أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم، على أي نوع كان، وخصوصًا علم الشريعة، الذي هو العروة الوثقى، والوزر الأحمى، وبالله تعالى التوفيق» انتهى المراد .

❑❑❑

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- موصيًا طالب العلم، مبيِّنًا له ما هو العلم النَّافع :

«**جماع الخير : أن يستعين بالله سبحانه في تلقِّي العلم الموروث عن النبي**

---

(١) تدبَّر هذا الموضع ! .

- صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم-؛ **فإنه هو الَّذي يستحقُّ أن يسمَّى علمًا**[1] .

وما سواه إما أن يكون علما؛ فلا يكون نافعا .

وإمَّا ألَّا يكون علمًا، وإن سمِّي به .

ولئن كان علما نافعا؛ فلا بد أن يكون في ميراث محمد - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- ما يغني عنه ممَّا هو مثله، وخيرٌ منه .

ولتكن همَّتُه فهمَ مقاصد الرسول في أمره، ونهيه، وسائر كلامه .

فإذا اطمأنَّ قلبُه أن هذا هو مراد الرَّسول؛ فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى، ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك .

وليجتهد أن يعتصم في كلِّ باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- .

وإذا اشتبه عليه ممَّا قد اختلف فيه الناس؛ فليدع بما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة - رضي الله عنها- **أن رسول الله** - صلَّى الله، عليه، وعلى آله، وسلَّم- **كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب، والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط**

---

(١) نافعا، قال الإمام ابن القيِّم - رحمه الله تعالى- : «**والعلم ما قام عليه الدَّليل، والنَّافع منه: ما جاء به الرسول**» انتهى من «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٩/ ط دار الكتاب العربي)، وقال تلميذه الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- : «**فالعلم النَّافع هو: ما باشر القلبَ؛ فأوقر فيه معرفةَ الله تعالى، وعظمتَه، وخشيته، وإجلاله، وتعظيمه، ومحبَّته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع، فخشعت الجوارح كلُّها تبعًا لخشوعِه**» انتهى «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ١٦/ ط الفاروق الحديثة) .

مستقيم» .

فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله: «**يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم**»[1] انتهى .

❑❑❑

وقال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- :

«**أفضل العِلم: العِلمُ بالله**[2]**، وهو العِلمُ بأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ التي توجب لصاحبها معرفة الله، وخشيته، ومحبَّته، وهيبتَه، وإجلالَه، وعظمتَه، والتَّبتُّلَ إلَيهِ، والتَّوكُّلَ عليه، والرِّضا عنه، والاشتغالَ به دون خلقه**[3] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٤-٦٦٥) .

(٢) [**وثمرتُه في قلب الإنسان**] «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٩/ ط الرسالة).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى- : «**وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجبَ خشية الله لا محالة!**؛ فإنه لا بدَّ أن يَعلم أنَّ الله يثيبُ على طاعته؛ ويعاقبُ على معصيته؛ كما شهد به القرآن، والعيَان، وهذا معنى قول أبي حيَّان التَّيمي - أحد أتباع التَّابعين -:(**العلماء ثلاثة: عالم بالله، ليس عالما بأمر الله، وعالم بأمر الله، ليس عالما بالله، وعالم بالله، وبأمر الله**)؛ فـ(**العالم بالله**) الَّذي يخشى الله، و(**العالم بأمر الله**) الذي يعرف الحلال والحرام، وقال رجل للشَّعبي: (أيُّها العالم)؛ فقال: (**إنَّما العالم من يخشى الله!**)، وقال عبد الله بن مسعود: (**كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلا**)»انتهى من «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٣٣) .

(٣) قال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- : «**فهذا هو العلم النافع**، كما قال ابن مسعود: (**إن أقوامًا يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه نفع**) .

وقال الحسن: (**العلم علمان: علم على اللِّسان؛ فذاك حجَّة الله على ابن آدم، وعلم في القلب، فذاك العلم النافع**) .

والقسم الثاني: العلم الَّذي على اللِّسان، وهو حجَّة الله كما في الحديث: «**القرآن حجَّة**

ويتبع ذلك :

العِلمُ بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتفاصيلُ ذلك .

والعلم بأوامر الله، ونواهيه، وشرائعه، وأحكامه، وما يحبُّه من عباده من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة، وما يكرهه من عباده من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة[1] .

ومن جمع هذه العلوم؛ فهو من العلماء الرَّبَّانيين (العلماءِ بالله، العلماءِ بأمر الله)[2] .

لك، أو عليك» انتهى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٩/ ط الرسالة) .

(١) قال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- :

«فأوَّل ما يرفع من العلم (العلم النافع)، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب،ويُصلحها، ويبقى علم اللِّسان حجة؛ فيتهاون النَّاس به، ولا يعملون بمقتضاه، لا حملتُه، ولا غيرُهم، ثم يذهب هذا العلمبذهاب حملته؛ فلا يبقى إلَّا القرآن في المصاحف، وليس ثَمَّ من يعلم معانيه، ولا حدودَه، ولا أحكامَه، ثم يسرى به في آخر الزمان، فلا يبقى في المصاحف، ولا في القلوب منه شيء بالكُليَّة، وبعد ذلك تقوم السَّاعة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم السَّاعة إلَّا على شرار النَّاس»، وقال: «لا تقوم الساعة وفي الأرض أحد يقول: الله الله» انتهى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٩-٣٠٠/ ط الرسالة).

(٢) هذا التقسيم للعلماء منقول عن أبي حيان التَّيمي (ت١٤٥)، وسفيان الثوري (ت١٦١)، وسفيان بن عيينة (ت١٩٨)، وكثير من السَّلف، وقد أفاض الحافظ ابن رجب- رحمه الله تعالى- في شرح هذا التقسيم؛ فأجاد، فانظر: «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ١٨-٢١/ ط الفاروق الحديثة)، و(٢/ ٨٠٨)، وسبق إلى التَّنويه به أبو حامد الغزَّالي(ت٥٠٥) في أول كتابه «إحياء علوم الدِّين» (١/ ٢-٢٣) وما بعدها، ونقل كلامه الإمام أبو شامة في «خطبة الكتاب المؤمَّل للردِّ إلى الأمر الأوَّل» (ص١٥١- ١٧٧/ ط أضواء السَّلف)، وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيميَّة هذا التقسيم كما في «مجموع الفتاوى»

وهم أكملُ ممَّن قَصُر علمُه على العِلـم بـالله، دون العِلـم بـأمره، وبـالعكس، وشاهد هذا النَّظر في حال الحسن، وابن المسيَّب، والثَّوري، وأحمد، وغـيرهم مـن العلماء الرَّبَّانيين .

وحال مالك بن دينار، والفضيل بن عياض، ومعروف، وبِشر، وغيرهم مـن العارفين»[1] انتهى .

❑❑❑

(٣/ ٣٣٣-٣٣٤)، وانظُر: «مختَصَر الفَتَاوى المِصريَّة» للبَعليِّ (ص١٤٥) .

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٤١/ ط الفاروق الحديثة) .

إذا فهمتَ هذه النُّقول فهمَ قلب؛ فإنَّ طالب العلـم لا يبلـغ رتبـة التَّحقيـق، والفهم، والاجتهاد؛ حتَّى يكون له دراية تامَّة بعلوم الشَّريعة .

قال الإمام الكبير أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦) - رحمـه الله تعالى- :

«**ولا يبلغ الرجل رُتبة الاجتهاد؛ حتى يعرف خمسة أنواع من العلم:**

يعرف علم كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آلـه، وسلم-، **وأقاويل السلف، ولسان العرب، ووجوه القياس** .

[١] يعرف من كتاب الله عـز وجـل ناسـخه ومنسـوخه، وخاصـه وعامـه، ومجمله، ومفصَّله، وغير ذلك من الآيات الَّتي جاءت في الأحكام.

[٢] ويعـرف مـن السُّـنن الَّتـي جـاءت في الأحكـام جميـع ذلـك، ويعـرف صحيحها وسقيمها، ومسانيدها، ومراسيلها، ويعرف ترتيب الكتاب على السنَّة، والسنَّة على الكتاب.

[٣] ويعرف أقاويـل السـلف في الأحكـام مـن الصـحابة فمـن بعـدهم إلى عصرإجماعهم، واختلافهم؛ فـإن اتِّبـاع الإجمـاع فـرضٌ لامتنـاع الاجتهـاد فيـه، والاجتهادُ في موضع الاختلاف مساغٌ بشرط ألَّا يقول قولاً تخالفُ فيه جماعتهم.

[٤] ويعرف علم اللغة، ولسان العرب؛ لأن الخطاب ورد بلسـانهم؛ فمـن لم يعرف لغتهم لا يعرف مراد الشرع.

[٥] ويعرف وجوه القياس من الجَلِيِّ والخفيِّ، وهو كيفيَّة ردِّ الفـرع الَّـذي لا يجد فيه نصًّـا إلى نظـائره مـن الأصـول الَّتـي وردت في الكتـاب والسـنَّة» انتهـى

المراد[1].

❑❑❑

وهذه المنزلة العَالية تُنَال كما تقَدَّم بـالإخلاص لله تعـالى، وحُسـن التَّعلُّـق بـه سبحانه، ودَوام الاستعانة به، وحفظ الزَّمان عن تضييعه في التَّوسُّـع فـيما لا ينفـع؛ فرأسُ مال طالب العلم وقتُه، وزمانُه؛ وإذا ضيَّعه فقد أفلس ! .

قال الإمام محمَّـد بـن مفلـح (ت٧٦٣) - رحمـه الله تعـالى-في كتابـه النَّـافع «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٤٧٤) :

«**واعلم أنَّ (الزَّمان) أشرفُ من أن يضيَّع منه لحظةٌ**؛ فكم يضيع للآدمـي مـن ساعات يفوِّته فيها الثَّواب الجزيل .

وهذه الأيَّام مثل المزرعة، وكأنَّه قد قيل للإنسان:(**كلَّما بذرت حبـةً أخرجنـا لك ألفًا**) .

هل ترَى يجوز للعاقل أن يتوقَّف عن البذر، أو يتوانى؟ .

والَّذي يعين على اغتنام الزَّمان :

الانفرادُ، والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السَّـلام، أو حاجـة مهمَّـة لمـن يلقى .

وقلَّة الأكل؛ فإنَّ كثرته سبب النَّوم الطَّويل، وضياع اللَّيل .

ومَن نظرَ في سِير السَّلف، وآمن بالجزاء بانَ له ما ذكرتُه» انتهى .

❑ ❑ ❑

(١) مقدِّمة كتابه «التهذيب في فقه الإمام الشافعي» (١/ ١١٤-١٢٥).

فائدةٌ لطيفةٌ :

جاء في ترجمة محدِّث الشَّام الإمام أبي جعفر محمدَّ بن عَوف بن سُفيَان الحِمصيِّ (ت٢٧٢) أنَّه قال :

«كُنتُ أَلعب فِي الكَنِيسَة بِالكرَة وَأَنَا حَدَّث، فَدَخَلتِ الكرَة [إلى المسجد]، فَوَقَعت قرب المُعَافَى بن عِمرَانَ الحِمصِيِّ، فَدَخَلت لأَخذهَا، فَقَالَ: ابنُ مَن أَنتَ؟ .

قُلتُ: ابن عَوف بن سُفيَان .

قَالَ: أَمَا إِنَّ أَبَاك كَانَ مِن إِخوَاننَا، فَكَانَ مِمَّن يَكتُب مَعَنَا الحَدِيث وَالعِلم، وَالَّذِي كَانَ يُشبِهُك أَن تتبع مَا كَانَ عَلَيهِ وَالِدك .

فَصِرتُ إِلَى أُمِّي، فَأَخبرتهَا، فَقَالَت: صدق، هُوَ صَدِيق لأَبيك .

فَأَلبستَنِي ثوبَا وَإِزَاراً، ثُـمَّ جِئـت إِلَى المعَـافَى، وَمَعِـي محـبرَة وَورق؛ فَقَـالَ لِي: اكتُب: حَدَّثَنَا إِسمَاعِيلُ بنُ عَيَّاشٍ، عَن عبد رَبِّهُ بنُ سُلَيمَانَ، قَالَ :

كتبَت لِي أُمُّ الدَّردَاء فِي لَوحِي :

«اطلبُوا العِلم صِغَاراً، تَعمَلُوا بِهِ كِبَاراً؛ فَإِنَّ لِكُلِّ حَاصد مَا زرع»[(١)] .

فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا سَمِعتُهُ» انتهى[(٢)] .

❑ ❑ ❑

---

(١) هذه كلمةٌ جَليلةٌ، ونَصيحةٌ نافعةٌ؛ فمَن جدَّ في زَمَن التَّحصيل فَرحَ عندَ الحصَاد بـمَا جمعَ، ومَن ضيَّع الفُرَص، ندمَ ولات ساعَة مَندم ! .

(٢) «تاريخ دمشق» (٥٥/ ٤٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٦١٤-٦١٥)، و«تـاريخ الإسلام» (٦/ ٦١٧) .

الفَصْلُ الثَّالِث

صفة ما ينبغي أن يكون عليه العالم، وطالب العلم النَّافع من الزُّهد في الدُّنيا، والتَّرفُّع عن مطامعها، وصيانة نفسه عن التَّذلُّل، والتَّزيُّن لأهل الغنى، واليسَار، والسَّلاطين

يقول الله تعالى في محكم تنزيله : وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ [الذاريات] .

وقال الله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ [فاطر].

وقال تعالى : وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ [القصص] .

وقال تعالى : ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ [الرعد].

وقال تعالى : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

﴿٢١﴾ [الحديد].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

❑ ❑ ❑

وقد وصف الله سبحانه في كتابه العلماء بأوصاف منها:

الخشية، والخشوع، والبكاء[1]، واحتقار الدُّنيا، والتَّزهيد فيها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

❑ ❑ ❑

قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجريُّ (ت٣٦٠) - رحمه الله تعالى- في «أخلاق العلماء» (ص٦٧):

«أفلا ترى- رحمك الله- كيف وصف العلماء بالبكاء، والخشية، والطاعة، والتذلُّل فيما بينه وبينهم؟».

أخرج الإمام مسلم - رحمه الله تعالى- في «صحيحه» (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شدَّادٍ - رضي الله عنه-قال: قال رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم-:

«**والله ما الدنيا في الآخرة إلَّا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه** - وأشار يحيى

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٥١و٥٢/ ط الفاروق الحديثة).

بالسبابة - في اليمِّ؛ فلينظر بم ترجع ؟» .

❑ ❑ ❑

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٥٦)، والترمذي في «سننه» (٢٣٧٦)، وغيرهم من حديث كعب بن مالك- رضي الله عنه- أنَّ النبي - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- قال :

«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشَّرَف لدينه» .

وإسناده صحيح .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة معلومة .

❑ ❑ ❑

ومن أعظم الأحاديث دلالة على هذا الفصل النَّافع ما تقدَّم في حديث أبي الدَّرداء - رضي الله عنه- في فضل العلم، وفيه :

«وإنَّ العلماءَ [هم] ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثُوا ديناراً، ولا دِرهماً، وإنَّما ورَّثُوا العِلمَ».

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ الرُّسل لم تبعث بجمع الدُّنيا، وتَوريثِها لأهليهم؛ وإنَّما بعثوا بالدَّعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، والعلم النَّافع، وتوريثه لأُمَمهم[1] .

وفيه: **أنَّ من كمال ميراث العالم للرَّسول** -عليه السلام- **أن لا يخلِّف الدُّنيا، كما لم يخلِّفها الرَّسول، وهذا من جملة الاقتداء بالرَّسول، وبسنَّته في زهده في الدُّنيا،** وتقلُّله منها، واجتزائه منها باليسير.

---

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٥١و٥٢/ ط الفاروق الحديثة) .

قال مالك بن دينار: سألت الحسن قلت له: ما عقوبة العالم؟ .

قال: «**موت القلب**» .

قلت: وما موت القلب؟ .

قال: «**طلب الدُّنيا بعمل الآخرة**»[1] .

وكان الإمام الزَّاهد سهل بن عبد الله التَّستري (ت٢٨٣) - رحمه الله تعالى- يقول: (**من علامة حبِّ السنَّة حبُّ الآخرة، وبغضُ الدُّنيا، وألَّا يأخذ منها إلَّا زادًا بُلغةً إلى الآخرة**) .

❑ ❑ ❑

وقال مالك بن دينار (ت١٣٠) - رحمه الله تعالى-: (**إنَّما العالم الذي إذا أتيته في بيته؛ فلم تجده قصَّ عليك بيته !** .

رأيتَ حصيرةَ الصَّلاة، ومصحَفه، ومِطهرَته في جانب البيت، ترَى أثر الآخرة) .

❑ ❑ ❑

وهكذا كان حال العلماء الربَّانيين: كالحسن، وسفيان، وأحمد، اجتزءوا من الدُّنيا باليسير إلى أن خرجوا منها، ولم يخلِّفوا سوى العلم .

مع أن بعضهم كان يلبس لباسًا حسنا، ويأكل أكلا متوسِّطا بعيدًا من التَّقشُّف، كالحسن البصري؛ فإنه كان يأكل اللحم كل يوم، كان يشتري بنصف درهم لحما فيطبخه مرقة طيبة؛ فيأكل منه هو وعياله، ويطعم كل من دخل عليه،

---

(١)«الزهد» لأحمد بن حنبل (ص٢١٥/ ط دار الكتب العلمية)، و«الزهد» لابن المبارك (ص ٥٣٢رقم١٥١٤/ ط دار الكتب العلمية)، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١/ ٦٦٦/ ط دار ابن الجوزي) .

وكان يلبس الثياب الحسنة، وهو مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وما زاحم على شيء منها قط.

كان الناس إذا دخلوا عليه خرجوا من عنده، ولا يعدون الدنيا شيئا، وما رأوا أشد احتقارا لأهل الدنيا منه.

وكانوا يدخلون عليه في مرضه يعودونه، وليس في بيته إلَّا سرير مرمول هو عليه، وليس في بيته قليل، ولا كثير؛ حتى قال ابن عون (ت١٥٠):

«إنما استبدَّ الحسنُ النَّاس بالزُّهد في الدُّنيا؛ فأمَّا العلم فقد شورك فيه» .

❑❑❑

وكان الحسن (ت١١٠) - رحمه الله تعالى- يقول:

«إنَّما الفقيه الزَّاهد في الدُّنيا، الراغب في الآخرة، المجتهد في العبادة، القائم بسنة محمَّد - صلى الله عليه وسلم -، **من رأى محمَّدا فقد رآه غاديا، ورائحا لم يضع لبنة، على لبنة، ولا قصبة على قصبة؛ إنَّما رُفِع له علَمٌ فشمَّر إليه»** .

❑❑❑

وكان سفيان الثوري (ت١٦١) - رحمه الله تعالى- أشد تقشُّفا في ملبسه من الحسن؛ حتى كان من يراه، ولا يعرفه يظنه من السؤال، وكان مع شدة ورعه إذا وجد الحلال أكل منه طيبا، وإن لم يجد حلالا استف الرمل، وربما بقي ثلاثا لا يطعم شيئا مع عرض الناس عليه الأموال الكثيرة.

وكان إذا شبع من الحلال يزيد في عمله، ويقول: **(أطعم الزنجي وُكده)!** .

وكان أزهد الناس في الدنيا في زمانه حتى كان يتعرى بمجلسه عن الدنيا، ولم تكن السلاطين، والملوك، والأغنياء أذلَّ منهم في مجلسه، ولا الفقراء، والمساكين أعز منهم فى مجلسه.

وكان الخوف قد غلب عليه؛ فلمَّا مرض مرض الموت حمل ماؤه إلى طبيب فقال: (**ليس لهذا دواء، هذا قد فتَّت الحزن، والخوف كبده**) .

ويقال: لم يكن في زمانه من هو أخوف لله منه، ولا من هيبة الله في صدره أعظم منه.

ولَمَّا مات قال بعض العلماء: (**معشر أهل الهوى، كلوا الدُّنيا بالدِّين، فقد مات سفيان**)!، يعني؛ ما بقي بعده أحدٌ يستحيا منه.

❑❑❑

وأما الإمام أحمد (ت٢٤١) - رحمه الله تعالى-؛ فكان أشدَّ منهما تقشُّفا في عيشه، وأكثر صبرًا على خشونة العيش للقلَّة، وكانت معيشته من حوانيت له ورثها من أبيه، ويأخذ أجرها في الشهر دون عشرين درهما، ومات لم يخلف إلَّا قطعا في خرقة له، كان وزنها دون نصف درهم، وترك عليه دينًا قضي عنه من أجرة حوانيته مع كثرة ما كان يرد عليه من الخلفاء من الجوائز، والصِّلات.

❑❑❑

وكان يحيى بن أبي كثير (ت١٣٢) - رحمه الله تعالى-من العلماء الربَّانيين المتوسِّعين في العلم، وكان يقال: إنه لم يبق على وجه الأرض مثله، وكان حسن الثياب، حسن الهيئة؛ فلما مات خلف ثلاثين درهما كفَّنوه بها - رحمه الله - .

❑❑❑

وكان محمد بن أسلم الطوسي (ت٢٤٢) - رحمه الله تعالى-من العلماء الربَّانيين الزُّهَّاد؛ فمات، ولم يخلِّف سوى كساءه، ولبده، فوضعوهما على نعشه، وإناءً للوضوء تصدَّقوا به.

فكان النِّساء على السُّطوح يقلن في جنازته: (**هذا العالم الَّذي خرج من الدُّنيا، وهذا ميراثه الَّذي على جنازته، ليس مثل علمائنا هؤلاء عبيدُ بطونهم، يجلس**

أحدهم للعلم سنتين أو ثلاثا؛ فيشتري الضِّيَاع، ويستفيد المال) ! .

❑❑❑

وقال العباس بن مرثد- رحمه الله تعالى-: سمعت أصحابنا يقولون:

(صار إلى الأوزاعي أكثر من سبعين ألف دينار من السُّلطان من بني أميَّة؛ فلمَّا مات خلَّف سبعة دنانير بقيت بقيَّة، وما كان له أرض، ولا دار) .

قال العباس: **(نظرنا فإذا هو أخرجها في سبيل الله، والفقراء)**[1] .

❑❑❑

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٥٣-٥٥/ ط الفاروق الحديثة) .

عُلَماء السَّلَف والسَّلاطين

وقال الإمام العابد وهب بن منبِّه(ت١١٠) لعطاء الخراساني- رحمهما الله تعالى-:

«كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم؛ فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، فكان أهل الدُّنيا يبذُلون لهم دنياهم ، رغبة في علمهم؛ فأصبح أهل العلم منَّا اليوم يبذلون لأهل الدُّنيا علمهم، رغبة في دنياهم؛ فأصبح أهل الدُّنيا قد زهدوا في علمهم؛ لِمَا رأوا من سوء موضعه عندهم، فإيَّاك وأبواب السلاطين؛ فإنَّ عند أبوابهم فتنًا كمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئا إلَّا أصابوا من دينك مثله !»[1] .

قال الإمام محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠) - رحمه الله تعالى- معلِّقًا:

«فإذا كان يخاف على العلماء في ذلك الزَّمان، أن تفتنهم الدُّنيا !؛ فما ظنُّك في زمننا هذا ؟! .

اللهُ المستعانُ! ما أعظمَ ما قد حلَّ بالعلماء من الفتن!، وهم عنه في غفلة !!»

انتهى كلامه .

وقال

سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٢٠٧)

محمد بن يزيد الرفاعي: حدثني حمدان بن الأصبهاني، قال:

---

(١) أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (ص٩٢) ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٩) .

كنت عند شريك، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك، فقال: كأنك تستخف بأولاد الخليفة .

قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه .

قال: فجثا على ركبتيه، ثم سأله؛ فقال شريك: هكذا يطلب العلم انتهى .

❑❑❑

ولَمَّا قال أمير المؤمنين هارون الرشيد - رحمه الله تعالى- للإمام مالك: يا أبا عبد الله أريد أن أسمع منك الموطَّأ .

فقال مالك: **نعم يا أمير المؤمنين .**

فقال: متى؟ .

قال مالك: **غدًا .**

قال: فجلس هارون ينتظره، وجلس مالك في بيته ينتظره .

قال: فلمَّا أبطأ عليه أرسل إليه هارون فدعاه؛ فقال له: يا أبا عبد الله ما زلت أنتظرك منذ اليوم ! .

فقال مالك: **وأنا - أيضًا- يا أمير المؤمنين لم أزل أنتظرك منذ اليوم، إنَّ العلم يؤتَى ولا يأتي، وإنَّ ابن عمَّك هو الَّذي جاء بالعلم؛ فإن رفعتُمُوه ارتفَع، وإن وضعتُمُوه اتَّضع»**[1] .

❑❑❑

(١) أخرجه «المدخل إلى السنن الكبرى» للبيهقي (ص٣٨٩-٣٩٠)، و«تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك» للسيوطي .

وجَرى مثلُ هذا بينَ الإمام أبي عبد الله البخاري (ت٢٥٦)، وولي بُخَارى .

ذكر ذلك غنجارٌ في «تاريخه»؛ فقال: سمعت أبا عمرو أحمد بن محمد المقرئ، سمعت بكر بن منير بن خليد بن عسكر يقول:

بعث الأمير خالد بن أحمد الذُّهليُّ والي بُخَارى إلى محمَّد بن إسماعيل أن احمل إلي كتاب «الجامع»، و «التَّاريخ» وغيرهما؛ لأسمع منك .

فقال لرسولِه: **أنا لا أذلُّ العلمَ، ولا أحمله إلى أبواب النَّاس؛ فإن كانت لك إلى شيء منه حاجةٌ؛ فاحضر في مسجدي، أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان؛ فامنعني من المجلس؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة؛ لأني لا أكتمُ العلمَ لقول النبي ﷺ: «مَن سئل عن علم؛ فكتمه ألجم بلجام من نار»**[1]؛ فكان سبب الوحشة بينهما هذا»[2] .

❑❑❑

وهذا عالم خراسان، وشيخ الإسلام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك[3] (ت١٨١) - رحمه الله تعالى- :

قيل له: من أئمَّة النَّاس؟ .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٥١)، وابن ماجه (٢٦١)، وغيرهم من حديث عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه- مرفوعا، وهو حديثٌ صحيحٌ . قال الترمذي في «سننه» (٥/ ٣٠): «حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ» .

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٦٤) .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في ابن المبارك : «**أجمعَت فِرق الأمَّة على إمامته، وجلالته؛ حتى قيل: إنه (أمير المؤمنين في كل شيء)**، وقيل: (ما أخرجت خراسان مثل ابن المبارك)، وقد أخذ عن عامَّة علماء وقته مثل الثَّوريِّ، ومالكٍ، وأبي حنيفة، والأوزاعيِّ، وطبقتهم» انتهى من «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٤٧٠).

قال: «**سفيانُ وذَوُوه**» .

قيل له: من سَفَلَة النَّاس ؟ .

قال: «**مَن يأكلُ بدينه!**»[1] .

وكان يقول: «**ليس من الدُّنيا إلَّا قوتُ اليوم فقط**» .

ونُقل عنه أنه قال: «**مِن شَرط العالم أن لا تخطر محبَّة الدُّنيا على بالِه!**» .

ونُقل عنه - أيضًا- أنَّه قال: «**عجبتُ لطالب العلم! كيفَ تدعوه نفسه إلى محبَّة الدُّنيا مع إيمانه بما حملَ من العلم !**» .

ونُقل عنه - أيضًا- أنَّه قال: «**ما بقي في زماننا أحدٌ أعرف أنَّه يأخذ النَّصيحَة بانشراح قَلب!**»[2] .

وقال - رحمه الله تعالى- :

رَأَيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إِدمَانُهَا

وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا

وَهَل أَفسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ ... وَأَحبَارُ سُوءٍ وَرُهبَانُهَا

❑❑❑

وثبت عنه - رحمه الله تعالى- أنَّه لـمَّا بلغه أنَّ الإمام إسماعيل بن إبراهيم المعروف بابن عُلَيَّة (ت١٩٣) - رحمه الله تعالى-، قد وَلِيَ (صدقات البصرة)[3] ؛

---

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٨/ ١٦٨) .

(٢) حكى هذه الأقوال عبد الوهَّاب الشعراني في ترجمة ابن المبارك في «الطبقات الكبرى» (١/ ٧٧-٧٩/ ط/ القديمة) .

(٣) وهذا هو الأصحُّ إسنادًا؛ فنصيحة ابن المبارك كانت لَمَّا ولي إسماعيل بن إبراهيم

كتبَ إليه :

يَـا جَاعِـلَ العِلـمِ لَـهُ بَازِيًـا ... يَصـطَادُ أَمـوَالَ المَسَـاكِينِ
احتَلـتَ لِلـدُّنيا ولَـذَّاتِهَا ... بحِيلَـةٍ تَـذهَبُ بالـدِّينِ
فَصـرتَ مَجنُونًـا بهَـا بَعـدَمَا ... كُنـتَ دَوَاءً لِلمَجَـانِينِ
أَيـنَ رِوَايَاتُـكَ في سَردِهَـا ... عَـن ابـنِ عَـونٍ وابـنِ سِـيرِينِ
أَيـنَ رِوَايَاتُـكَ فِـيمَا مَضَـى ... في تَـركِ أَبـوَابِ السَّـلاطِينِ
إِن قُلـتَ أَكرِهـتُ فَـذَا بَاطِـلٌ ... زَلَّ حِمَـارُ العِلـمِ في الطِّـينِ

فجعل ابن عُليَّة يقرأها، ويَبكِي! .

وقال ابن البراء: أخبرنا عليُّ ابن المديني، قال:«بِتُّ عند ابن عُليَّة، وما رأيتُه ضحكَ بعد توليه صدقات البصرة» .

❑❑❑

وقال أبو بكر المرُّوذي (ت٢٧٥) : قلتُ لأبي عبد الله: قد قيل لابن المبارك: كيف يُعرف العالم الصَّادق ؟.

فقال: «**الَّذي يزهد في الدُّنيا، ويُقبل على أمر آخرته**» .

فقال أبو عبد الله: «**نَعم هكذا يريد أن يكون**»[1] .

❑❑❑

قال الإمام الحافظ ابن رجب (ت٧٩٥) - رحمه الله تعالى- معلِّقًا على هذه

المعروف بابن عُليَّة صدقات البصرة، وروي بإسناد فيه ضعفٌ أنَّها كانت لَمَّا ولي القضاء، وانظر: طرق القصَّة في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٩٦/ ط دار الغرب)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٣٧/ ط ابن الجوزي) .

(١)«الورع» لأحمد (ص١٣١/ ط دار الصميعي)، و«إبطال الحيل» (ص٣٤) لابن بطة.

الكلمة :

«وكان أحمد ينكر على أهل العِلم حبَّ الدُّنيَا، والحرصَ على طلبها .

واعلم أنَّه إنَّما أهلكَ أهل العِلم، وأوجبَ إساءَة ظـنِّ الجهَّـال بهـم، وتقـديم جُهَّال المتعبِّدين عليهم ما دخلَ عليهم من الطَّمع في الدُّنيَا» انتهى كلامه[1] .

❑❑❑

وقال الإمام الشافعي (ت٢٠٤) - رحمه الله تعالى- :

«لا عيب في العلماء أقبحُ من رغبتهم فيما زهَّدهم الله فيه، وزُهدهم فيما رغَّبهم الله فيه» ! .

❑❑❑

وقال الإمام الحافظ سعيد بن يعقوب الطَّالقاني (ت٢٤٤) - رحمه الله تعالى- كتب إِليَّ أحمدُ بن حنبل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من أحمد بن محمَّدٍ إلى سعيد بن يعقوب

أما بعد :

فإنَّ الدُّنيا داءٌ، والسُّلطان داءٌ، والعالمُ طبيبٌ .

فإذا رأيتَ الطَّبيب يجرُّ الدَّاء إلى نفسه؛ فاحذره، والسَّلامُ عليك»[2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة (ت٧٢٨) - رحمه الله تعالى- معلِّقًا :

---

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٥٦) .

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٦٨) .

«فيه التَّحذير من استفتاء من يَرغب في المال، والشَّرف من العلماء»[1] .

❑❑❑

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن الحداد المغربي (ت٣٠٢) - رحمه الله تعالى-:

«القُرب من السُّلطان في غير هذا الوقت حتفٌ من الحتوف؛ فكيف اليوم؟»[2] .

❑❑❑

وقال محمَّد بن يوسف الفِريَابي : سمعتُ سفيان الثَّوريَّ- رحمه الله تعالى- يقول:

«كان خيار النَّاس، وأشرافهم، والمنظور إليهم في الدِّين الَّذين يقومون إلى هؤلاء؛ فيأمرونهم يعني الأمراء .

وكان آخرون يلزمون بيوتهم، ليس عندهم ذلك، وكان لا ينتفع بهم، ولا يذكرون .

ثمَّ بقينا؛ حتى صار الَّذين يأتونهم؛ فيأمرونهم شرارَ النَّاس، والَّذين لزموا بيوتهم، ولم يأتوهم خيار النَّاس»[3] .

❑❑❑

وقال الإمام عبد السَّلام بن سعيد بن حبيب التَّنوُّخي المالكي فقيهُ أهل المغرب الملقَّب بـ(سُحنون)(ت٢٤٠) - رحمه الله تعالى- :

«ما أقبحَ بالعَالم أن يُؤتى إلى مجلِسه؛ فلا يوجد فيه؛ فيُسأل عنه؛ فيقال: (هو

---

(١) انظر: «المسوَّدة في أصول الفقه» (ص٥٥٠/ ط دار المعرفة/ ت محمد حامد الفقي).

(٢)«سير أعلام النبلاء»(١٤/ ٢١٤) .

(٣)«سير أعلام النبلاء»(١٤/ ٢١٤) .

عند الأمير)!، (هو عند الوزير)!، (هو عند القاضي)! .

فإنَّ هذا وشبهَه شرٌّ من علماء بني إسرائيل.

وبلغني أنَّهم يحدِّثونهم من الرُّخص ما يحبُّون، ممَّا ليس عليه العمل، ويتركون ما عليه العمل، وفيه النَّجاة، لهم، كراهة أن يشتغلوهم ! .

ولعمري لو فعلوا ذلك لنجوا، ووجب أجرهم على الله .

فوالله لقد ابتليتُ بهذا القضاء، وبهم،ووالله ما أكلتُ لهم لُقمةً، ولا شربتُ لهم شربةً، ولا لبستُ لهم ثوباً، ولا ركبتُ لهم دابةً،وما أخذتُ لهم صلةً .

وإنِّي لأدخل عليه، فأكلمهم بالتَّشديد، وما عليه العمل، وفيه النَّجاة.

ثم أخرج عنهم؛ فأحاسب نفسي؛ فأجد عليَّ الدَّرك مع ما ألقاهم به في الشِّدَّة، والغلظة، وكثرة مخالفتي هواهم، ووعظي لهم.

فوددتُ أن أنجوَ ممَّا دخلتُ فيه كفافًا !»[1] .

❑❑❑

وقال الإمام الفُضيل بن عِياض (ت١٨٧) - رحمه الله تعالى- :

« لو كان دخولي على الخليفة كلَّ يوم؛ لكَلَّمْته في عُلماء السُّوء، أقول:

يا أمير المؤمنين لا بدَّ للنَّاس من راع، ولا بدَّ للرَّاعي من عالِمٍ يشاوره، ولا بدَّ له من قاضٍ ينظر في أحكام المسلمين، وإذا كان لا بدَّ من هذين؛ فلا يأتيك عالِمٌ، ولا قاضٍ إلَّا على حمار بأَكافٍ، فبالحَرِيِّ أن يؤدُّوا إلى الرَّاعي النَّصيحة .

يا أمير المؤمنين متى تطمع [من] العلماء، والقضاة أن يؤدُّوا إليك النَّصيحة،

---

(١) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٤/ ٧٦-٧٧) للقاضي عياض، وقد ساق هذه الكلمة الجليلة مختصرةً الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٥/ ٨٦٨/ بشَّار)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٦٥-٦٦) .

ومركب أحدهم بكذا وكذا ؟! »[1] .

❑❑❑

وقال القاضي الجليل الشيخ العلَّامة فيصل بن عبد العزيز بن فيصل المبارك الحُرَيملي النَّجدي (ت١٣٧٦) - رحمه الله تعالى- مُوصيًا أهل العلم[2]؛ **ولعلَّ هذه الكلمة هي فصل الخطاب في قضيَّة الدُّخول على الأمراء، والسَّلاطين**[3] :

«وإذا ابتليتم بالملوك؛ فخالطوهم، وناصحوهم على حسب قُدرتكم، ولا تخونوهم؛ فإن عليكم ما حُمِّلتم، وعليهم ما حُمِّلوا ..، ولا تُذِلُّوا أنفسَكم، وتُهِينوها بالطمع ..

واعلم أنَّ العافيةَ، والبعدَ من المَناصب، والملوك، خيرُ ذلك، وأسلم في دنياك، وآخرتك؛ فمن أراد راحة نفسه، وسلامة دينه؛ فلا يكن أميراً، ولا قاضياً، ولا يتعرَّف بالملوك، ومن جَرَّب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي[4] **!»** انتهى .

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٤/ ٩٤٩) .

(٢) في رسالته «وصية نافعة لعموم أهل العلم والتبيان».

(٣) وانظر: رسالة السُّيوطي «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السَّلاطين»، ورسالة الشَّوكاني «رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسَّلاطين»، وقد علَّق عليها بتعليقات نفيسة العلَّامة المحقِّق محمد ابن عثيمين، وطبعت بدار مدار الوطن/ ١٤٣٠، وانظر: «الفتح الربَّاني من فتاوى الإمام الشوكاني» (٩/ ٤٦٥٧-٤٦٨٩) .

(٤) وذلك عائد إلى أحد ثلاثة أسباب، أبانَها التَّاج السبكي في «معيد النعم ومبيد النقم» (ص٥٧-٥٨)، وهي :

«[١] **فيؤدِّي ذلك**[أي: لقاء الملوك والحرص على الجاه، والمنصب] **إلى أنَّ قلبه يُظلم بهذه الأكدار، ويزولُ صفاؤه بهذه الأمور التي تُظلم القلوب، وتبعد عن علَّام الغيوب .**

[٢] **وإلى أنَّه يشتغل بهم وبها عن الازدياد في العلم؛ فكم رأينا فقيهًا تردَّد إلى أبواب**

تَنبيهٌ :

وهذا الَّذي ذَكرهُ الأَئمَّة والسَّلَف المَاضُون مِن بابَ الوَرَع، والزُّهد، والإقبَال على الخَير، وربَّما خَالطُوا السَّلاطين، والمُلُوك، مُخَالَطة شَرعيَّة إمَّا على وَجهِ الوُجُوب، أو الاستحبَاب؛ فإذا تَفَهَّمت هذا فلا يحِلُّ لعَاقلٍ أن يَغمزَ في دِينهم لشَيء مِن حصَلَ منهم مِن مُخَالطة السُّلطَان؛ فاحذَر .

قالَ الإمام الجليلُ محمَّد بن إبرَاهيم الوَزير (ت٨٤٠) - رحمه الله تعالى- :

«فإذا عرفتَ هذا، فلا بدَّ مِن الكلام على فوَائد **قصدتُ بها وجهَ الله تعالى في** أَمرين :

أَحدِهما: في الذَّبِّ عن جماعة من العلماء، والفُضلاء قد خالطوا المُلوك؛ إمَّا لغرَضٍ دِينيٍّ، أو لحاجةٍ دُنيويةٍ، أو لتقيَّةٍ، أو لمصلحةٍ عامَّةٍ، أو خاصَّةٍ، أو لمجمُوع هذه الأمور، أو مجموع أمرَين منها، أو أكثر، ولم يرتَكِبُوا في مخالطتِهم محرَّماً، ولا كان منهم إلاَّ مجرد المخالَطة .

الملوك؛ فذهب فقهه، ونسي ما كان يعلمه ! .

[٣] **وإلى فساد عقيدة الأمراء في العلماء**؛ فإنَّهم يستحقِرون المتردِّد إليهم، ولا يزالون يعظِّمون الفقيه؛ حتى يسألهم في حوائجه، ويؤول ذلك إلى أنَّهم يظنُّون في أهل العلم السُّوء، ولا يُطيعونَهم فيما يفتون به، ويُنقِصُون العلم وأهله، وذلك فسادٌ عظيم، وفيه هلاك العالَم.

وإذا قال لك فقيه: (إنَّ التردُّد إلى أبواب السَّلاطين لإعزاز الحقِّ، ولنصرة الدِّين، ولغرض من الأغراض الصَّحيحة)؛ فقل له: إن صحَّ ما تقول -وأنت أخبر بنفسك- فأنت على خطر عظيم؛ لأنَّك قد انغمست في الدُّنيا، وأنت تدَّعي أنَّك تقصد بها الآخرة ! .

وإن ثبت هذا فما نأمن عليك أن تنجرَّ مع الدُّنيا؛ ولذلك كان سفيان الثَّوري - رحمه الله- يقول: (**إن دعوكَ لتقرأ عليهم** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **فلا تَمض، ولا تقرأها!**) .

وبالجُملة: **أنت أخبر بنفسك؛ فابحث عنها !**» انتهى .

فيتوهَّم من لم يعرفِ الشَّريعة أنَّهم بمنزلة أهل المعَاصي الصَّريحَة، ويتسَاهل في استحلال غيبَتهم، وهتكِ حُرمَتِهم .

وثَانيهما: الذَّبِّ عن العُلُوم المأخوذَة عن هؤلاء؛ فإنَّ كثيراً من علوم الشَّريعَة -على تبَاين طبقاتها- مستندَةٌ إلى مَن لم يسلم من شيءٍ من هذا القَبيل» انتهى[1] .

❑❑❑

وقال الإمام الشَّوكانيُّ (ت١٢٥٠) - رحمه الله تعالى- بعد أن قرَّر وجوب طاعة ولاة الأمر في المعروف- :

«وظاهرُ ذلك أنَّهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح؛ فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله، **ومن جملة ما يأمرون به: تولِّي الأعمال لهم، والدُّخول في المناصب الدِّينية الَّتي ليس الدُّخول فيها من معصية الله، ...**

وبالجملة : فطاعتهم واجبة على كلِّ مَن صار تحتَ أمرهم، ونهيهم في كلِّ ما يأمرون به ممَّا لم يكن من معصية الله، ولا بدَّ في مثل ذلك من المخالطَة لهم، والدُّخول عليهم، ونحو ذلك مما لا بدَّ منه، ولا محيصَ عن هذا الَّذي ذكرناه، من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة، لتواتر الأدلة الواردة به ..

وبالجملة : فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلمٌ؛ فعليه أن يزن أقوالَه، وأفعالَه، وما يأتي، وما يذر بميزان الشَّرع؛ فإن زاغ عن ذلك «فعلى نفسها براقش تجني»، ومن قدر على الفِرَار منهم قبل أن يؤمرَ من جهتهم بأمر يجبُ عليه طاعته؛ فهو

---

(١) «العَواصم والقواصم في الذَّبِّ عن سنَّة أبي القَاسِم» (٨/ ١٨٨) .

الأَولى له، والأَليق به» انتهى[1] .

❑❑❑

(١) «فتح القدير الجامع بين فنَّي الرِّواية والدِّراية من التَّفسير» (٢/ ٦٠١-٦٠٢) .

وأختم هذا الفصل النَّافع بقصيدةٍ هي من غرر الشِّعر، تـداولها أهـل العلـم، والأدب كابرًا عن كابرٍ، وخلَفًا عن سلفٍ :

وهي قصيدة الإمام العلامة القاضي الأديب أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢) - رحمه الله تعالى- .

وهي من عيون الشِّعر العربيِّ، فائقة الجمال، بائنة الحسن، والدَّلال، قد صار في عادة أهل العلم حفظها[1]؛ لما فيها من معاني عزة نفس طالب العلم، وترفُّع العلماء، وإبائهم عن ابتذال علومهم لأهل الدُّنيا، وصبرهم على ضيق العيش، وصيانة العلم الَّذي يحملون[2] .

نصُّ القصيدة الميميَّة العصماء

قال - رحمه الله تعالى- :

يَقُولُـــونَ لِي: فِيـــكَ انقِبَـــاضٌ وإِنَّـــمَا
رَأَوا رَجُـــلًا عَـــن مَوقِـــفِ الـــذُّلِّ أحجَـــمَا

---

(١) قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩) - رحمه الله تعالى- في «حلية طالب العلم» (ص١٩٣/ المجموعة العلمية) : «**وقد كان العلماء يلقِّنون طلَّابهم حفظَ قصيدة الجرجانيِّ عليِّ بن عبد العزيز**(م سنة ٣٩٢هـ) - رحمه الله تعالى-**كما نجدُها عند عدد من مترجميه**» انتهى.

(٢) وقد يسَّر الله تعالى بمنَّه وكرمه، وإحسانه إفرادَ الكلام على هذه القصيدة العصماء، بجزء لطيف سمَّيته: «**ميميَّة القاضي أبي الحسن الجرجاني في إباء العالم وعزَّة طالب العلم**» فيه نقولٌ جامعة، وبحوثٌ نافعة، وجمع لأبيات القصيدة من المصادر الموثوقة، وتحقيقها، وترتيبها، مع شرح لها يجلِّيها، ويحلِّيها، أسأل الله تعالى أن يتقبَّله عنده، وينفع به طلَّاب العلم النَّافع في كلِّ مكان، وأوان؛ إنَّه سميع مجيب .

أَرَى النَّـاسَ مَـن دَانَـاهُمُ هَـانَ عِنـدَهُم
ومَـــن أَكرَمَتـــهُ عِـــزَّةُ الـــنَّفسِ أُكرِمَـــا
ولَم أَقـضِ حَـقَّ العِلـمِ إِن كُنـتُ كُلَّـمَا
بَـــدَا طَمَـــعٌ صَـــيَّرتُهُ لِيَ سُـــلَّمَا
ومَـا زِلـتُ مُنحَـازًا بعِـرضِيَ جَانبًـا
عَـــن الـــذُّلِّ أَعتَـــدُّ الصِّـــيَانَةَ مَغـــنَمَا
إِذَا قِيـلَ: هَـذَا مَنهَـلٌ قُلـتُ: قَـد أَرَى
ولَكِـــنَّ نَفـــسَ الحُـــرِّ تَحتَمِـــلُ الظَّـــمَا
أُنَزِّهُهَـا عَـن بَعـضِ مَـا لا يَشِـينُهَا
مَخَافَـةَ أَقـوَالِ العِـدَا:(فِـيمَ؟) أَو(لِـمَا)؟
فَأَصـبحُ عَـن عَيـبِ اللَّئـيمِ مُسَـلَّمًا
وقَـد رُحـتُ فِى نَفـسِ الكَـرِيمِ مُعَظَّـمَا
وإِنِّـى إِذَا مَـا فَـاتَنِى الأَمـرُ لَم أَبِـت
أُقَلِّـــبُ كَفَّـــى إِثـــرَهُ مُتَنَـــدِّمَا
ولَكنَّـــهُ إِن جَـــاءَ عَفـــوًا قَبلتُـــهُ
وإِن مَـــالَ لَم أُتبِعـــهُ: هَـــلَّا ولَيـــتَمَا
وأَقـبِضُ خَطـوِى عَـن حُظُـوظٍ كَثِـيرَةٍ
إِذَا لَم أَنَلهَـــا وَافِـــرَ العِـــرضِ مُكرَمَـــا

وأُكـــرمُ نَفسِـــى أَن أُضَـــاحِكَ عَابسًـــا
وأَن أَتَلقَّـــــــى بالمَـــــــدِيحِ مُـــــــذَمَّمَا

ومَـــا كُـــلَّ بَـــرقٍ لاحَ ليَســـتَفِزُّنِى
ولا كُـــلَّ مَـــن لَاقَيـــتُ أَرضَـــاهُ مُـــنعِمَا

ولَكِـن إِذَا مَـا اضَّـطرَّنى الضُّرُّ ـ لَم أَبِـت
أُقَلِّـــبُ فِكـــرِى مُنجِـــدًا ثُـــمَّ مُـــتهِمَا

إِلَى أَن أَرَى مَـــا لَا أَغَـــصُّ بـــذِكرِهِ
إِذَا قُلـــتُ: قَـــد أَســـدَى إِلَىَّ وأَنعَـــمَا

وكَـــم طَالِـــبٍ رِقِّـــى بـــنُعمَاهُ لَم يَصِـــل
إِلَيـــهِ وإِن كَـــانَ الـــرَّئيسَ المُعَظَّـــمَا

وكَـــم نِعمَـــةٍ كَانَـــت عَـــلَى الحُـــرِّ نِقمَـــةً
وكَـــم مَغـــنَمٍ يَعتَـــدُّهُ الحُـــرُّ مَغرَمَـــا

ولَم أَبتَـــذِل فى خِدمَـــةِ العِلـــمِ مُهجَتِـــى
لأَخـــدُمَ مَـــن لَاقَيـــتُ لَكِـــن لأَخـــدَمَا

أَأَشـــقَى بـــهِ غَرسًـــا وأَجنِيـــهِ ذِلَّـــةً
إِذًا فَاتِّبَـــاعُ الجَهـــلِ قَـــد كَـــانَ أَحزَمَـــا

وإِنِّي لَـــرَاضٍ عَـــن فَتًـــى مُتَعَفِّـــفٍ
يَـــرُوحُ ويَغـــدُو لَـــيسَ يَملِـــكُ دِرهَمَـــا

يَبِيـتُ يُرَاعِـي الـنَّجمَ مِـن سُـوءِ حَالِـهِ
ويُصـــبِحُ طَلقًـــا ضَـــاحِكًا مُتَبَسِّـــمَا
ولا يَســـأَلُ المُثـــرِينَ مَـــا بـــأَكُفِّهِم
ولَـــو مَـــاتَ جُوعًـــا عِفَّـــةً وتَكَرُّمَـــا
يَقُولُـــونَ: زِنـــدُ العِلـــمِ كَـــابٍ فَـــإِنَّمَا
كَبَـــا حِـــينَ لَم تُحـــرَس حِمَـــاهُ وأَظلَـــمَا
وَلَـــو أَنَّ أَهـــلَ العِلـــمِ صَـــانُوهُ صَـــانَهُم
وَلَـــو عَظَّمُـــوهُ فِي النُّفُـــوسِ لَعُظِّـــمَا
وَلَكِـــن أَهَـــانُوهُ فَهَـــانَ وَدَنَّسُـــوا
مُحَيَّـــاهُ بِـــالأَطمَاعِ حَتَّـــى تَجَهَّـــمَا

الفهرس العام

(العِلمُالنَّافع وأَثَرُهُ عَلَى سُلُوكِ الفَرد والمُجتَمَع) ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المقدِّمة ٢
الباب الأول: فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[١] أنَّ ربنا – جل وعلا– رفع مكانة أهل العلم، وكفى بذلك شرفًا، وفضلا لهم؛ إذ شرَّفهم ربَّهم سبحانه، وأعلا شأنهم، وأكرمهم في الآخرة، والدُّنيا، وفضَّلهم على كثير من المؤمنين .خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٢] ومن عظيم رفعة الله تعالى لأهل العلم :أن الله تبارك وتعالى استشهد أهل العلم على أعظم مشهود عليه، وهو توحيد الله تعالى..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٣] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه : أنَّ العلم النَّافع أعظم أسباب خشية الله تعالىخطأ! الإشارة المرجع
[٤] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه : أنَّ طلب العلم أفضل العبادات بعد أداء الفرائض، وهو خير من نافلة العبادات من صلاة، وصومٍ، وغير ذلك من نوافل الطاعاتخطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٥] ومن جليل آثار العلم النَّافع على حامله : أنَّ العلم النَّافع يحثُّ مَن يطلُبُه، ويسمَعُه على العمل بما علم؛ فـ(العمل الصالح) ثمرة العلم النَّافع، و(العلم النَّافع) داع إلى العمل الصالح ١٨
أَلَا وإن من الأخطار العظيمة بمكانٍ :العملُ بغير علم، والعبادةُ دون تحقيق العلم.....١٩
[٦] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه :أنَّ (العلم النَّافع) يحثُّ حامله، وكلَّ من يصله فردًا أو جماعة على إخلاص العبادة لله تعالى، واجتناب الشرك بالله تعالى، وهذا أسمَى الغايات، وأكبر المقاصد، وأعلا المكرمات ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أثر حديث (أوَّل من تسعَّر بهم النَّار) على أبي هريرة، ومعاوية، وخوفهم الشديد ممَّا تضمَّنه من الوعيدخطأ! الإشارة المرجعية غ
الفصل الأول: نماذج من أثر العلم النَّافع على حامليه في التَّزوُّد من الطاعة، والعبادة ٢٧
١/ أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل أبي هريرة – رضي الله عنه–، واجتهاده في العبادة .خطأ! الإشارة المرجعية غير م
٢/ أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر – رضي الله عنه–، واجتهاده في العبادة .خطأ! الإشارة المرجعية
الفصل الثاني: نماذج من أثر العلم على حامليه في أوقاتِ الفتن العظام.....٣٠
الصورة المشرقة الأولى :أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أبي بكرة نفيع بن الحارث – رضي الله عنه–خطأ! الإشارة المرجعي

الصورة المشرقة الثانية :أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر - رضي الله عنه- في وفائه ببيعة يزيد بن معاوية، وقد بايعه على ما في يزيد من المخالفات، وتشديده على أولاده، ومن هم تحت رعيَّته في الوفاء بها، وعدم خلعها ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الصورة المشرقة الثالثة : أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أسامة بن زيد - رضي الله عنه-خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

وهو من جميل أثر العلم في فقه النصح لولاة الأمر، والأئمَّة عند وجود المخالفات لاسيَّما وقت الفتن، وشدَّة خوف أهل العلم من الرِّياء في ذلك؛ ولهذا يتكاتمون نصائحهم للولاة . .. خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفصل الأول: أثر العلم النَّافع على الفرد والمجتمع في توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، واجتناب البدع ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفصل الثاني: أثر العلم النَّافع في توحيد كلمة المسلمين..... ٤٠

الفصل الثالث: ومن آثار العلم النَّافع في حفظ مجتمعات المسلمين :ما يكون من أثر العلم النَّافع في إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الناس، والتفقُّه في فقهها، والعمل فيها على مقتضى الشريعة، ولا يكون هذا إلَّا بالعلم النَّافع..... ٤٤

الفصل الرابع: أثر العلم النَّافع في ثبات المجتمعات، وحفظها، ونمائها، وازدهارها..... ٤٨

الفصل الخامس: أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة في أمنها، وسلامتها من الفتن..... ٥٠

الخاتمة ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفصل الأول: في بيان أن نجاة الأمَّة من الفتن، والضَّلال هو بالرَّجوع إلى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم، واجتناب أشباه العلماء من أهل الفتن والزيغ..... ٥٤

تدافع السَّلف الصالح - رضوان الله تعالى عليهم- الفتوى . ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفصل الثاني: طريق أخذ العلم النافع، وسبيل نيله ٥٨

(العِلمُالنَّافع وأَثَرُهُ عَلَى سُلُوكِ الفَرد والمُجتَمَع) ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المقدِّمة ٢
الباب الأول: فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[١] أنَّ ربنا – جل وعلا– رفع مكانة أهل العلم، وكفى بذلك شرفًا، وفضلا لهم؛ إذ شرَّفهم ربَّهم سبحانه، وأعلا شأنهم، وأكرمهم في الآخرة، والدُّنيا، وفضَّلهم على كثير من المؤمنين .خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٢] ومن عظيم رفعة الله تعالى لأهل العلم :أن الله تبارك وتعالى استشهد أهل العلم على أعظم مشهود عليه، وهو توحيد الله تعالى ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٣] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه : أنَّ العلم النَّافع أعظم أسباب خشية الله تعالىخطأ! الإشارة المرجع
[٤] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه : أنَّ طلب العلم أفضل العبادات بعد أداء الفرائض، وهو خير من نافلة العبادات من صلاة، وصومٍ، وغير ذلك من نوافل الطاعاتخطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٥] ومن جليل آثار العلم النَّافع على حامله : أنَّ العلم النَّافع يحثُّ مَن يطلُبُه، ويسمَعُه على العمل بما علم؛ فـ(العمل الصالح) ثمرة العلم النَّافع، و(العلم النَّافع) داع إلى العمل الصالح.....١٨
أَلَا وإن من الأخطار العظيمة بمكانٍ :العملُ بغير علم، والعبادةُ دون تحقيق العلم.....١٩
[٦] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه :أنَّ (العلم النَّافع) يحثُّ حامله، وكلَّ من يصله فردًا أو جماعة على إخلاص العبادة لله تعالى، واجتناب الشرك بالله تعالى، وهذا أسمَى الغايات، وأكبر المقاصد، وأعلا المكرمات ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أثر حديث (أوَّل من تسعَّر بهم النَّار) على أبي هريرة، ومعاوية، وخوفهم الشديد ممَّا تضمَّنه من الوعيدخطأ! الإشارة المرجعية غ
الفصل الأول: نماذج من أثر العلم النَّافع على حامليه في التَّزوُّد من الطاعة، والعبادة ٢٧
١/ أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل أبي هريرة – رضي الله عنه–، واجتهاده في العبادة .خطأ! الإشارة المرجعية غير م
٢/ أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر – رضي الله عنه–، واجتهاده في العبادة .خطأ! الإشارة المرجعية
الفصل الثاني: نماذج من أثر العلم على حامليه في أوقاتِ الفتن العظام.....٣٠
الصورة المشرقة الأولى :أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أبي بكرة نفيع بن الحارث – رضي الله عنه–خطأ! الإشارة المرجعي
الصورة المشرقة الثانية :أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر – رضي الله عنه– في وفائه ببيعة يزيد بن معاوية، وقد بايعه على ما في يزيد من المخالفات، وتشديده على أولاده، ومن هم تحت رعيَّته في الوفاء

بها، وعدم خلعها ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الصورة المشرقة الثالثة : أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أسامة بن زيد – رضي الله عنه–خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
وهو من جميل أثر العلم في فقه النصح لولاة الأمر، والأئمَّة عند وجود المخالفات لاسيَّما وقت الفتن، وشدَّة خوف أهل العلم من الرِّياء في ذلك؛ ولهذا يتكاتمون نصائحهم للولاة ... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفصل الأول: أثر العلم النَّافع على الفرد والمجتمع في توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، واجتناب البدع..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفصل الثاني: أثر العلم النَّافع في توحيد كلمة المسلمين..... ٤٠
الفصل الثالث: ومن آثار العلم النَّافع في حفظ مجتمعات المسلمين :ما يكون من أثر العلم النَّافع في إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الناس، والتفقُّه في فقهها، والعمل فيها على مقتضى الشريعة، ولا يكون هذا إلَّا بالعلم النَّافع ٤٤
الفصل الرابع: أثر العلم النَّافع في ثبات المجتمعات، وحفظها، ونمائها، وازدهارها ٤٨
الفصل الخامس: أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة في أمنها، وسلامتها من الفتن..... ٥٠
الخاتمة ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفصل الأول: في بيان أن نجاة الأمَّة من الفتن، والضَّلال هو بالرَّجوع إلى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم، واجتناب أشباه العلماء من أهل الفتن والزيغ ٥٤
تدافع السَّلف الصالح – رضوان الله تعالى عليهم– الفتوى . ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفصل الثاني: طريق أخذ العلم النافع، وسبيل نيله.....٥٨
(العِلمُالنَّافع وأَثَرُهُ عَلَى سُلُوكِ الفَرد والمُجتَمَع)..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المقدِّمة ٢
الباب الأول: فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[١] أنَّ ربنا – جل وعلا– رفع مكانة أهل العلم، وكفى بذلك شرفًا، وفضلا لهم؛ إذ شرَّفهم ربَّهم سبحانه، وأعلا شأنهم، وأكرمهم في الآخرة، والدُّنيا، وفضَّلهم على كثير من المؤمنين .خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٢] ومن عظيم رفعة الله تعالى لأهل العلم :أن الله تبارك وتعالى استشهد أهل العلم على أعظم مشهود عليه، وهو توحيد الله تعالى ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

[٣] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة على حامليه : أنَّ العلم النَّافع أعظم أسباب خشية الله تعالىخطأ! الإشارة المرجع
[٤] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه : أنَّ طلب العلم أفضل العبادات بعد أداء الفرائض، وهو خير من نافلة العبادات من صلاة، وصومٍ، وغير ذلك من نوافل الطاعاتخطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
[٥] ومن جليل آثار العلم النَّافع على حامله : أنَّ العلم النَّافع يحثُّ مَن يطلُبُه، ويسمَعُه على العمل بما علم؛ فـ(العمل الصالح) ثمرة العلم النَّافع، و(العلم النَّافع) داع إلى العمل الصالح.....١٨
أَلَا وإن من الأخطار العظيمة بمكانٍ :العملُ بغير علم، والعبادةُ دون تحقيق العلم.....١٩
[٦] ومن فضائل العلم النَّافع، وآثاره الحميدة لحامليه :أنَّ (العلم النَّافع) يحثُّ حامله، وكلَّ من يصله فردًا أو جماعة على إخلاص العبادة لله تعالى، واجتناب الشرك بالله تعالى، وهذا أسمَى الغايات، وأكبر المقاصد، وأعلا المكرمات ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أثر حديث (أوَّل من تسعَّر بهم النَّار) على أبي هريرة، ومعاوية، وخوفهم الشديد ممَّا تضمَّنه من الوعيدخطأ! الإشارة المرجعية غ
الفصل الأول: نماذج من أثر العلم النَّافع على حامليه في التَّزوُّد من الطاعة، والعبادة ٢٧
١/ أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل أبي هريرة – رضي الله عنه–، واجتهاده في العبادة .خطأ! الإشارة المرجعية غير م
٢/ أثر العلم النَّافع في سلوك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر – رضي الله عنه–، واجتهاده في العبادة .خطأ! الإشارة المرجعية
الفصل الثاني: نماذج من أثر العلم على حامليه في أوقاتِ الفتن العظام.....٣٠
الصورة المشرقة الأولى :أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أبي بكرة نفيع بن الحارث – رضي الله عنه–خطأ! الإشارة المرجع
الصورة المشرقة الثانية :أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر – رضي الله عنه– في وفائه ببيعة يزيد بن معاوية، وقد بايعه على ما في يزيد من المخالفات، وتشديده على أولاده، ومن هم تحت رعيَّته في الوفاء بها، وعدم خلعها ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الصورة المشرقة الثالثة : أثر العلم النَّافع على الصحابي الجليل أسامة بن زيد – رضي الله عنه–خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّف
وهو من جميل أثر العلم في فقه النصح لولاة الأمر، والأئمَّة عند وجود المخالفات لاسيَّما وقت الفتن، وشدَّة خوف أهل العلم من الرِّياء في ذلك؛ ولهذا يتكاتمون نصائحهم للولاة ... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفصل الأول: أثر العلم النَّافع على الفرد والمجتمع في توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، واجتناب البدع..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفصل الثاني: أثر العلم النَّافع في توحيد كلمة المسلمين.....٤٠

الفصل الثالث: ومن آثار العلم النَّافع في حفظ مجتمعات المسلمين :ما يكون من أثر العلم النَّافع في إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الناس، والتفقُّه في فقهها، والعمل فيها على مقتضى الشريعة، ولا يكون هذا إلَّا بالعلم النَّافع ٤٤

الفصل الرابع: أثر العلم النَّافع في ثبات المجتمعات، وحفظها، ونمائها، وازدهارها ٤٨

الفصل الخامس: أثر العلم النَّافع على المجتمع، والأمَّة في أمنها، وسلامتها من الفتن ٥٠

الخاتمة ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفصل الأول: في بيان أن نجاة الأمَّة من الفتن، والضَّلال هو بالرَّجوع إلى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم، واجتناب أشباه العلماء من أهل الفتن والزيغ ٥٤

تدافع السَّلف الصالح – رضوان الله تعالى عليهم– الفتوى . ..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفصل الثاني: طريق أخذ العلم النافع، وسبيل نيله ٥٨